

أولاً: واقع اللغة العربية

الدفاع عن اللغة العربية واجب قومي

أبدى أحد الأساتذة المتخصصين في اللغة العربية اهتماماً بوجوب نشرها بين جامعات العالم للتعريف بثقافتنا واستعادة مجدها العريق، واعتبر هذا واجباً قومياً مما نتفق معه فيه تماماً، ونعتبره وساماً على صدر مصر أن تنهض بهذا العبء الثقافى الرائع استكمالاً لريادتها العربية الأصلية، فقط كانت وما زالت مصر الأزهر الشريف الذى نشر العربية بين أرجاء العالم الإسلامى.

ولعل هذا الوجوب يدفع إلى تأمل واقعنا اللغوى الذى أصابه كثير من التدهور والتدنى لدى بعض المتخصصين ممن يتشدقون بتسيّد العامية بدلاً للفصحى، والعامية هنا لا تعنى عامية المثقفين ولا لغة الممارسة اليومية في صورتها المقبولة، ولكنها تدنى أحياناً إلى مشهد مبتذل لا يليق بأهل اللغة أن يروجوا له، ولا أن يتباروا في الثناء عليه إلى حد تفضيل عامية الطبقة الدنيا من أدعياء الفن مثلاً على عامية أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم!! وهنا يبدو الموقف مفتعلاً في إيجاد خصومة لا مبرر لها بين العامية والفصحى مع تجاهل ما بينهما من التلاقى والتكامل المعرفى بدليل ما يوجد لدى طبقة العامة من البسطاء الذين ما زالوا يرددون قصائد مغناة لأقطاب الغناء العربى المشهود لهم بالبراعة والأصالة، فكان غناؤهم بالفصحى والعامية يسير في خطين

متوازيين يتقبلها الجمهور بدهشة وانبهار لا تقل عن شغف الجمهور ذاته بلغته الدارجة وآدابه الشعبية المعبرة عن همومه ومشكلاته وطموحاته وآلامه.

إن المصرى البسيط يجد متعة - أى متعة - في ترديد أطلال أم كلثوم وناجى، ورسالة من تحت الماء لحافظ وقبانى، دون معاناة أو عجز عن الفهم، أو صعوبة في الترم بأمثالهما. أما ما طراً على الساحة من صيغ غريبة على غرار كداب يا خيشة وكوز المحبة انخرم وزحمة يا دنيا زحمة، وقلشقندى دبح كبشة وكمننة وأشباهاها، فقد بدا غريباً على شعبية الأدب، حيث انحدر فن الكلمة، وأحسبه لا يتسق مع طبيعة الشعب المبدع حين ينتقى من مفرداته وتراكيبه ما هو أرقى من ذلك بكثير.

من هنا وجب الدفاع عن لغتنا بشطريها (١) الفصيح الواضح البسيط من مثل فصاحة المثقفين وفصاحة الإعلام وبخاصة الصحافة. (٢) والعامى المتوازن الذى يصدر عن حياة الناس دون ترخص أو ابتذال افتعال في انتقاء مفردات وتراكيب تسقط من ذاكرة المتلقى بمجرد تلقيها، هذا إذا سلمنا أصلاً بإمكانية تلقيها دون نفور أو مضاضة.

ودعونا نتأمل تجربة سريعة وبسيطة وموجزة أمام ما يثبت في الذاكرة من الغناء التراثى، وما يكمله لدى مطربينا الشبان وكثير منهم يقدم أعمالاً جيدة، وبين ما يتداوله الجمهور من العامية المبتذلة التى سرعان ما تنتهى مع زفاف عروسين أو ختام مجلس أنس!!

إن لغتنا يا سادة لها جمالها وفصاحتها ورونق مفرداتها، وإيقاعها الصوتى، ودلالاتها المجازية رفيعة المستوى حتى في لغة الشعب اليومية، ومقياس شعبيتها انتشارها على ألسنة القوم ميسورة الأداء، بعيداً عن غرابة الافتعال التى قد يصفق لها البعض، إما مجاملة أو مهادة أو إرضاء لصاحبها أو خضوعاً لآنية الموقف، أو من قبيل التساهل والسطحية على حساب الفصحى.

وليس من الطبيعى أن نطالب بتوظيف فصحانا التراثية في لغة الحديث اليومى، وإلا تعذر الأمر، وقد نهى النبى العربى الفصيح عليه السلام عن التقعر والتعقيد

حين حذر من المتفقيهيين ممن ييغضون اللغة إلى متلقيها، وليس من الطبيعي أن نرفض ما انتهت إليه مجامع اللغة من قبول الدخيل الذى أصبح جزءاً من نسيجها، فلا مبرر لاستخدام المسرة والمرناة وآلة التصوير بدائل للتليفون والتليفزيون والكاميرا، ولا مبرر - مطلقاً - لأن نطلب من البائع شاطراً ومشطوراً " ساندوتش "، ذلك أن العربية قد تمتعت بثناء لغوى منقطع النظير حيث عاشت بين أهلها لغة متطورة متجددة تأخذ وتعطى وتؤثر وتتأثر، وتهضم ما يدخل في صميم مفرداتها وتراكيبها من لغات أخرى، وهو ما تجلّى منه جانب - بل جوانب أخرى - في العامية التى أضافت إلى الفصحى عطاءات ثرية دون أن يعنى هذا انسحاب الفصحى ولا تحاذل أهلها على الإطلاق.

إن مطالبة البعض بتدريس النحو العربى بالعامية ليعد أمراً قبيحاً في حق الحس القومى . وإلا كان الأعاجم أولى بهذا الطلب في عصور العربية الزاهرة التى شهدت نشاطاً رائعاً للمدارس النحوية والبلاغية، وعندئذ عكف الأعاجم على تعلمها، بل ألفو فيها أشعاراً لا تنسى على غرار ما صنعه الجرجاني في أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز.

ولا شك أن تعايش العامية مع الفصحى سيظل أمراً مطروحاً ومفروضاً ومقبولاً شريطة عدم الانحدار بالعامية إلى " دون الدون " . أو المبالغة في الاستخفاف بها، أو خلق عاميات غريبة على نسيج المجتمع المصرى الذى يجد هويته وعمق ذاتيته في لغته التى طالما حافظ عليها ونشرها بين ربوع الدنيا. ولا أدل على هذا من مستوى الوعى والفهم لدى الناس تجاه ما يسمعون من آيات القرآن الكريم في أرقى مستوى للفصحى مما يبدو مفهوماً ومؤثراً في العقول والوجدان الجمعى على السواء.

علينا أن ننتبه جيداً إلى محاور الإبداع التى خلفت لنا تراثاً عامياً رائعاً ومتميزاً قبل موجة الانهيار الأخيرة والتى بدأنا نصفق لها بلا مبرر معقول. إن عامية الزجل العربى قدمت للبشرية تجارب رفيعة المستوى ومثلها كانت عامية الأغانى المصرية التى يرددها الشعب في حياته اليومية، فبدت عملة جيدة عبرت عن كيان أهلها وفكرهم، ومن ثم كان لها الذيوع والانتشار والسيرورة والقبول.

أما اصطناع الترخص بالعامية والإسراف في التدنى بمفرداتها أو الإفراط في تشويه تراكيبها فما أحسبه سيلاقى أيًا من صور البقاء خاصة أن صناعتها لا يعينهم إلا التريح والكسب المؤقت، أما بقاء لغتهم بين الجمهور فأحسبه لا يرد لديهم في الذاكرة أصلاً ؛ لأن الذاكرة الشعبية تتمتع بذكاء يدفعها إلى حفظ ما يستحق البقاء على غرار ما استقر في ذاكرة الجاهلى القديم حتى بداية عصر التدوين.

أعتقد أنه بات من المطلوب تحديد مفهوم واضح لكلمة الشعبية التى بدأت تهترئ في زحام الترخص اللغوى، فقد عرفنا شعراء الشعب في عصورنا القديمة وهم يعكسون خلاصة تفاعلهم مع شرائح واقعهم وانغماسهم في همومه ومشكلاته، وكشف انعكاساته على نفوسهم وعقولهم دون أن يلجأوا إلى التدنى أو السقوط أو الابتذال، الذى يسهم في امتهان أشرف لغة على وجه الأرض لخير أمة أخرجت للناس، وأصبح من واجبنا حق الدفاع عن لغتنا في صيغة واجب قومى أيضاً، يكاد يوازى - إن لم يفق - اهتمامنا بنشرها بين جامعات العالم شرقاً وغرباً.

تدريس اللغة العربية للمتخصصين

يبدأ الإصلاح من نقدنا لأنفسنا وواقعنا وإعادة النظر في تقويم خطانا، مما يتطلب مراجعة لوائح الكليات والأقسام المتناظرة بين كل جامعات مصر لتخرج بلاتحة موحدة أو متقاربة يقرأها المجلس الأعلى للجامعات، يتم الأخذ بها في كل الأقسام والكليات على السواء، مما يذيب الفروق القائمة حالياً بين اللوائح والمناهج ومستوى الخريجين. فمن غير المنطقي أن يكون خريج جامعة جنوب الوادى مختلفاً في تحصيله وثقافته ومناهجه عن خريج جامعة الإسكندرية - مثلاً - أو غيرها.

إن ثمة مفارقات تبدو غير مقبولة في مناهج بعض الكليات التي ربما تطفئ دراسة الأدب فيها على دراسة النحو العربى وعلوم اللغة، وهذه مسألة في غاية الأهمية والخطر، وربما لا يتأتى إصلاحها إلا بمراجعة حيادية موضوعية وأمنية لكل اللوائح والخروج منها بلاتحة واحدة قوامها:

١- دراسة النحو العربى تاريخاً ومنهجاً وتطبيقاً وقراءة وكتابة بشكل كاف، وبعدد من ساعات التدريس والتدريب يؤهل الطالب لأن يستوعب النحو العربى بوصفه متخصصاً، ثم ينتقى منه بعد ذلك ما يصلح تقديمه للطلاب في مراحل التعليم العام في صور ميسورة ومبسطة ترشده إليها بعد

ذلك مناهج وزارة التعليم ، فمن غير المنطقي أن نجد مجمل عدد ساعات النحو في قسم اللغة العربية على مدار مرحلة اليسانس ١٦ ساعة في مقابل ستين ساعة للأدب أياً كانت فروع الدراسات الأدبية التي تجوز على حق الدراسات اللغوية والتطبيقية.

٢- دراسة علوم اللغة وتعرّف إنجازات علمائها الكبار الذين شغلوا بالظواهر الصوتية والدلالية والتركيبية مع اصطناع مزاجية محكمة ودقيقة بين الدرس التراثي وبين المناهج المعاصرة في الدراسات اللغوية مع الأخذ في الاعتبار ضرورة تحديث الدرس اللغوي من خلال إمكانات معامل الأصوات ومعامل اللغات والإفادة من أجهزة الكمبيوتر وشبكات الانترنت ومناهج البحث اللغوي والمكتبات والوثائق في هذا الصدد.

٣- دراسة البلاغة العربية والنقد العربي من حيث النشأة والتطور ، وحركة تيار الفكر البلاغي والمتابعة النقدية من خلال تعريف الطلاب بأقطاب البلاغة العربية ومدارسهم واتجاهاتهم ، وكذا في حركة النقد القديم ومناهجه وصولاً إلى التيارات المعاصرة وربطها بالموروث وعطاء المرحلة ، مع الاهتمام بدراسة الآداب الأجنبية في إحدى اللغات الأجنبية التي يدرسها الطالب تمهيداً للدرس الأدبي المقارن بين الأدب العربي وغيره من آداب الأمم الأجنبية.

٤- دراسة الأدب العربي وتتبع رحلته التاريخية في شكل منهجي مقبول يتجاوز التفتيت المصطنع في بعض اللوائح التي طغت فيها الدراسات الأدبية على اللغوية والبلاغية والنحوية والنقدية فتحوّلت إلى دراسات جانبية وهامشية بلا مبرر ، وهو ما ينبغي أن يطرح على الساحة بصدق ، وأن ينتقل الدرس الهامشي والجانبى بالفعل إلى موقعه الطبيعي من الدراسات الإنسانية الأخرى غير اللغوية.

٥- الدراسات الإسلامية وستطرح خصوصيتها قبل ختام هذه الورقة. وبمثل هذا يمكن أن تنضبط دراسة الآداب عبر عصورها التاريخية فلا مانع من دراسة أدب مصر الإسلامية ضمن الأدب العربي الإسلامي ، وكذلك ضمن منظومة الأدب العباسي في المشرق والمغرب على السواء ؛ أما افتعال التقسيم إلى مقررات جزئية مفردة في الدرس الإقليمي بين أدب مغربي / إلى أندلسي / مصري / وغيرها

فهو ما يحتاج إعادة نظر ضمن منظومة دراسة الأدب العربى بشكل موضوعى
ينأى عن نظام الكراسى الذى أنشئت بسببه هذه التخصصات دون مبرر علمى
محاييد أو أصيل.

٦. وجوب احترام مساحة العلوم البينية التى ينبغى على طالب التخصص أن يفيد
منها ولا داعى للإفراط فى التخصص الدقيق وادعاء الاستغناء عن التخصصات
الأخرى فقسم اللغة العربية - مثلاً - لابد أن يدرس علوم التاريخ والحضارة
والفكر الفلسفى وعلم النفس الأدبى وعلم الاجتماع الأدبى وغيرها من العلوم
ذات الصلة المعمقة بالدرس الجمالى والنقدى والتحليلى.

٧. يجب أن تتضمن اللوائح أسلوب العمل الذى ينبغى أن يتبع سواء فى تعليم العربية
أو تعلمها، وهو ما يبدو محكوماً بوضع برامج محددة فى كل مقرر (توصيف
علمى للمقررات العلمية) ولا تترك بالصورة الفوضوية السائدة حالياً والتى
تسمح - مثلاً - بتدريس ما لا صلة له باللغة العربية ضمن مقررات اللغة العربية فى
الوقت الذى يتم فيه الاستغناء عن المواد المساعدة من الأقسام الأخرى لمجرد
حرص أساتذة التخصص على الاستئثار بموادهم ودراساتهم.

٨. يتم تشكيل لجنة عليا من كبار الأساتذة المتخصصين فى علوم اللغة العربية ببحث
يسند إليهم النظر فى تعديل اللوائح أو توصيف المقررات، أو تطوير المناهج أو
تطوير أساليب التقويم والاختبارات، وتكون لهذه اللجنة صلاحيات كافية
لضبط أى من صور القصور، أو التجاوزات التى قد تقتربها بعض المؤسسات
الجامعية طبقاً لتخصصات أصحابها حيناً، أو خضوعاً لأهوائهم فى معظم
الأحيان، مع وضع الضمانات الكافية لسلامة سير العملية التعليمية فى فترة
شهدت فيها الجامعات غيبة ضمير بعض الأساتذة أو حتى جهلهم الشديد بعمق
موادهم العلمية.

٩. يتم وضع خطة عمل أساسها توضيح الهدف من تدريس اللغة العربية
للمتخصصين بدءاً من وصلهم بتراثهم العربى باعتبارهم حماة وحراسه، إلى
الحرص على تكوينهم العصرى من خلال تحديث هذا التراث من واقع التعددية

القراءة والمعرفة للموروث والمناهج المعاصرة، فلا ينبغي أن نقف من موادنا التراثية موقف القداسة المطلقة، ولا كذلك المناهج المعاصرة، بل نحتاج إلى اصطناع ازدواجية ناجحة - بعيدة عن التلفيق - بحيث يمكن الإفادة علمياً من تقنيات العصر وآلياته ومناهجه في التفاعل والتعامل مع مناهجنا القديمة تطويراً وتحديثاً بشكل مقبول يمكن الاتفاق عليه والوصول فيه إلى كلمة سواء من خلال الحوار والمداخلة ورفض منطق القطعية المعرفية بالتراثي والجديد معاً.

وتبقى كلمة مهمة - هنا - حول ضرورة تحديث فكر طلاب هذا التخصص وتزويدهم بأحدث مناهج العصر في التعرف على الأنواع الأدبية وتاريخها وتطورها من خلال أساتذة متخصصين، ولا توضع هذه المقررات في أيدي غير الأمناء عليها، وكذا يجب التوقف المتأنى عند تحليل النصوص الأدبية بآليات جديدة ومناهج أصيلة واضحة المعالم، والبعد عن التهويمات والغموض وادعاء الفرنجة، أو حتى ادعاء الغموض تغطية للجهل بتحليل النص، على نحو ما يقع فعلاً من بعض المدرسين الذين يشككون الطلاب إما في تراثهم وإما في عقولهم، فلعل هذا الجيل يقدم للعربية جديداً إن أحسن تقويمه، ووفقنا في انتقاء المواد التثقيفية التي ترقى بعقله ووجدانه دون حشو أو تزئيد أو إفراط في تكوينه مستظهِراً حافظاً، بقدر ما نسعى إلى إعادة تشكيله مفكراً ومناقشاً وناقداً ومتداخلاً مع كل ما يقدم له من مواد الثقافة العربية ونصوصها.

وتستكمل صورة هذا الطرح إذا وضعنا في الاعتبار ضرورة تعديل صورة دأري اللغة العربية ومدرسيها على المستويات الاجتماعية والتثقيفية وعلى رأسها الصورة التي تتبناها وسائل الإعلام، والتي يحسن - بل يجب - تصحيحها بعيداً عن التندر والسخرية والاستهزاء. ثم يبقى لمدرس هذه اللغة العظيمة أن يتصل بنصّها المقدس حفظاً وفهماً ووعياً ودراسة وتفسيراً، فما أحسبه سيخطئ في تركيب الجملة أو فهم السياق إن حفظ بعضاً من أجزاء القرآن الكريم، أو بعضاً من الأحاديث النبوية الشريفة؛ الأمر الذي يتطلب أن توضع خطة منهجية واضحة للدراسات الإسلامية

في أقسام اللغة العربية، وألا تترك المسألة فوضى ؛ لتظل الدراسات الإسلامية بالذات في مهب الرياح تبعاً لتعدد الأيديولوجيات التي إن شاءت قلّصت مناهجها، وإن شاء قلّلت ساعاتها، وآثرت التضحية بها وأسقطتها من الاعتبار، إذ يوضع أمام اللجنة المقترحة تصوّر علمي دقيق وأمين حول مسار الفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية، ودراسة العلوم الإسلامية في إطار النصّين المقدسين القرآن الكريم والحديث النبوى، وأن يفسح لهما مساحة معقولة تتجاوز حد التهميش الحادث لهما، حالياً، والذي لا يعادلان فيه دراسة لغة شرقية أو حتى نصف لغة أوربية. إن ثمة مطلباً مهماً أميناً لتكوين طالب التخصص من خلال صلة حميمة بالنصين المقدسين وما حولهما من تفاسير وشروح إلى جانب بعض الدراسات الأدبية حول مادتهما بشكل أساسى، على نحو ما هو معمول به في بعض الجامعات العربية، وعلى غرار ما شهدته الجامعة المصرية ذاتها أيام أمين الخولى وأحمد أمين وعائشة عبد الرحمن وشكرى عياد ويوسف خليف وغيرهم من كبار أساتذة الدراسات الإسلامية الذين خفت من بعدهم أصوات أهلها!!

تدريس اللغة العربية لغير المتخصصين

من المؤكد والطبيعى أن يكون لدى المثقف العربى قدر من الإلمام بلغته القومية بوصفها مقوماً أصيلاً من مقومات فكره وحضارته وهويته وشخصيته وتاريخ أمته، ومن ثم فإن الجهل بها - أو حتى الضعف في توظيفها - يعد خطأ غير مقبول التبرير، حتى لو استعان أى مثقف برصيده من اللغات الأجنبية على حساب قصوره وعجزه عن استكمال حوارهِ باللغة الأم، والأسوأ منه أن يستبدل بها العامية المصرية باعتبارها أقرب إلى الفهم والتداول. من هنا كانت ضرورة تدريس اللغة العربية لغير المتخصصين قصداً إلى تحقيق عدة أهداف محددة تنتهى إلى :

١- صحة الكتابة للجملة العربية، وتكوين حس لغوى دقيق وأصيل يتجاوز منطق التسكين، أو اللكنة الأعجمية المخجلة، أو الانحدار إلى العامية إلى حد الكتابة ببعض مفرداتها ومصطلحاتها أحياناً فراراً من الوعى بسلامة الفصحى.

٢- صحة القراءة مع الإبانة والوضوح والفصاحة دون تعقيد أو تقعر أو صعوبة، فلنأخذ من فصاحنا أبسط ما فيها دون أن يتنافى مع رصانتها وسلامتها، بل ينبغى التأكيد على مرونتها وتجديدها وعصريتها على النحو الذى سجله لها طه حسين حين رآها يسراً لا عسراً.

٣. فهم المعنى : سواء منه ما يرد في صيغ تقريرية مباشرة، أو حتى ما قد يأتي منه في باب الرمز أو المجاز أو التصوير، مما يحتاج إلى تأمل لصيغ الجمال في الأداء اللغوي من منظور بلاغى أو نقدى.

٤. الارتقاء بتلقى اللغة إلى حد جمال التذوق واستساغة النطق بها، وطيب سماعها والارتقاء بوجدان المتلقى والسمو بحسه وتذوقه، ولا مانع من تخصيص محاضرات للإلقاء تأكيداً لصحة هذا الهدف وتقريبه إلى نفوس قرائها.

الأدوات والمنهج:

(أ) متطلب كلية:

يقترح تدريس لطلاب الأقسام العلمية وأقسام اللغات غير العربية وأقسام الإنسانيات والعلوم الاجتماعية من خلال مواد محددة قوامها:

١. أصول تحليل النص الأدبي ومناهج تذوقه والتفاعل معه تفسيراً وتقويماً.
٢. تحليل صيغ التعرف على تاريخ الأجناس الأدبية وتطورها وبيان حدودها.
٣. دراسة الجملة العربية وصور الإعراب والبناء والإعراب التقديرى وتبادل حركات الإعراب والكشف في المعجم... إلخ.
٤. دراسة قواعد الكتابة الإملائية مع التركيز على الهمزة والزيادة والنقص وغيرها.

(ب) متطلب جامعة:

١. ويتناول عرض مقومات الدرس التاريخي للفكر العربى (إنسانية الثقافة - التفاعل - الثقاف - الانفتاح على الآخر - التأثير والتأثر... إلخ).
٢. يتناول قراءات نصية من التراث العلمى للأعلام للعرب مثل: البيرونى وابن الهيثم والخوارزمى، والرازى وابن سينا وابن رشد والكندى والفارابى، وأشباههم من شوامخ الفكر العربى ورواد الثقافة وصناع العلوم والحضارة.
٣. تحليل خصائص الثقافة العربية وإعادة قراءة تاريخها برؤية معاصرة ومنظور متجدد بعيداً عن التعصب والانغلاق الفكرى.

٤- تطبيقات وتدريبات وتنمية مهارات :

أ- لغوية، إملائية، نحوية

(ج) أسلوب التدريس: يبدأ من ضرورة تحديث منهج التوصيل، وتجاوز مستوى الاستظهار والحفظ والتلقين، إلى التوجه إلى قراءة تثقيفية مساعدة، إلى تنمية روح المناقشة والحوار والمداخلة من خلال:

١- فتح باب الحوار والاتكاء على المناقشة وعرض الآراء، مع الحرص على موضوعية الرأي، واحترام الرأي الآخر من خلال:

٢- تعميق القراءات الصحفية التطبيقية، واتخاذها مادة لتصحيح النطق والكتابة.

٣- تنمية المهارات اللغوية بشكل تطبيقي، مع الاعتماد على الكتابة وتصحيح الأخطاء.

٤- كتابة مقال في أى من الموضوعات المعاصرة، وتحليل ما به من أخطاء كتابية.

٥- تعرّف الأخطاء الشائعة في المكاتبات الرسمية، ومحاولة الخلاص منها وبيان الصحيح فيها.

٦- ربط المادة العلمية موضوع التدريب والاطلاع - قدر الإمكان - مع نصوص فرع التخصص الذى ينتمى إليه الطالب.

٧- توزيع العمل العلمى بين العطاء النظرى للأساتذة الكبار، وبين التشعيب التدريبي الذى ينهض به المدرسون، مع المتابعة الدقيقة والإشراف الفعلى من قبل الأساتذة.

علامات استفهام حول مدرس اللغة العربية!!

الحديث عن مدرس اللغة العربية يبدو حديثاً خاصاً خصوصية اللغة تأكيداً على شرف منزلتها التي تكسبه خصوصية الموقع ؛ ذلك أن هذا المقرر يمثل أعلى ممتلكات هذه الأمة باعتبار اللغة هي مقوم شخصيتها، وهي معلّم أساسي من معالم هويتها، وهي وسيلة التثقيف والتعليم بها، وهي بمثابة الذاكرة الواعية بقدرتها عن استيعاب كل مقدرات أبناء الوطن. من هنا تأتي - في رأيي - خصوصية مكانة معلم اللغة العربية، لا لتميُّز في شخصيته، ولكنه التميُّز في تخصُّصه إن أجاد فهمه، أو أحسن التعامل معه، وإلا أصبح عبئاً على لغته وقومه وطلابه ورفاقه، بل قد يصبح جناية على أمته وثقافته إذا ما تدنى مستواه، أو تنازل عن مكانته التي ينبغي أن يحرص عليها احتراماً لذاته ولغته وتاريخها العريق بكل تراثه وعبقريته وتميُّزه وعمقه.

والمدرس المقصود هنا يشمل المعلم في المدارس، ويمتد ليشمل مدرس الجامعة ممن حصل على الدكتوراه، وعجز بعدها عن الإنجاز الحقيقي في العملية التعليمية المنوطة به، فكان مثار شكوى الطلاب من قبيل التندر بهم، أو الاستهزاء بمقرراتهم، أو الاستخفاف بمناهجهم، أو التحقير لأساليبهم في التعامل. والأدهى والأمر من كل هذا يمتد إلى كراهية بعض المتخصصين للغة العربية مما ينسحب على تنفيرها للطلاب منها!!

هنا يكون - فقط - فحوى الجناية، ومحك التعامل معها، وضرورة إعادة النظر في تحديث منظومة التعليم الكبرى من قبيل الإصلاح الجذرى الذى يبدأ - فيما أتصور - من إصلاح المدرس، وعندئذ نحسبه قادراً على إصلاح تلاميذه، أو إصلاح ما نقص في مناهج التدريس والمقررات بقدرته على النقد، وجسارته على طرح رأيه فيما هو بصدد تدريسه للطلاب.

ويبقى السؤال المحورى هنا قائماً حول الصورة المثلى والنموذج الأعلى المطلوب من مدرس اللغة العربية، وعلى العكس منها ستكون الصورة الناقصة والنمط المتدننى الذى ينبغى تجاوزه والانصراف عنه، دون أن يعنى الأمر هنا مطلق التعميم، فما زال في الساحة أساتذة كبار يجيدون التدريس، ويقدمون الجديد، ولكنهم - للأسف - ندرة أمام كم ضخم من أجيال المدرسين الجدد الذين أسندت إليهم أشرف مهنة، فلم يقوموا بواجبهم إزاءها، ولا هم شرفوا تخصصهم، ولا احترموا أنفسهم ودعونا نخاطب هؤلاء - وهم كثيرون - بمنطق أبى تمام الذى يعرفونه، أو يعرفه المجتهد منهم في قوله المشهور:

ولولا خلال سنها الشعر ما درى بناة العلا من أين تؤتى المكارم

فنحن هنا نضع - على الأقل - النموذج الأمثل الذى يسعى إليه بناة العلا إن أرادوا أن يكونوا كذلك، وإلا فمن حقنا أن نسأل أكثر من مدرس اللغة العربية: هل يجيد توصيل اللغة بأمانة وفهم ووعى ووضوح لتلاميذه؟ فإن أجاب بالإثبات فهل يتم ذلك في الفصل الدراسى أو قاعة التدريس؟ أم أنه يفعل ذلك في المجموعات الدراسية؟ أم في الدروس الخصوصية فحسب؟! فإن كان في الأخير فقط فإن المصيبة أعظم؟!

وهل يكتب المدرس على السبورة بخط جيد (ولا نقول جميلاً) يمكن أن يكون مقروءاً ومستساغاً بحيث يحاول تلاميذه تقليده أو يتمنون أن يكتبوا مثله؟ وهل يتجاوز الأخطاء الإملائية في كتاباته بين همزة الوصل والقطع والهاء والتاء المربوطة؟ وهل يدرّب طلابه بالفعل على الكتابة أمامه حتى يُقوّم أخطاءهم ويحدد مستواهم ويجوّد خطوطهم؟

وهل يقرأ المدرس بالفعل كشاكيل تلاميذه ويصحح لهم ما يكتبون؟ أم يكتفى بأن يصحح كل تلميذ لزميله كراسته؟ وهل يقرأ تطبيقات الطلاب - مثلاً - ويدرب الطلاب عليها شفاهياً وكتابياً؟ أم يكتفى بجمع الكراسات والنظر فيها سريعاً ووضع الدرجات عشوائياً دون تصحيح الأخطاء؟!

ثم يأتي السؤال ماذا يفعل مدرسو اللغة العربية في تصحيح الامتحانات: هل يقرأون فعلاً موضوعات التعبير التي يكتبها التلاميذ؟ وهل يحددون ما بها من أخطاء ليأخذ الطالب حقه؟ أم أن المسألة تؤخذ بالجملة لتصبح ضربة حظ للتلميذ أو عليه؟ وهو ما يحدث أحياناً أيضاً في جامعة الأعداد الكبيرة؟

تُرى هل يحرص المدرسون على أن يقوموا ألسنة الطلاب في قراءة النص العربي؟ وهل يسمعون منهم ويصوبون لهم الأخطاء؟ وهل عودوهم على ضبط ما يقرأون؟ أم أنهم يترجمون الفصحى إلى عامية ركيكة يتم بها توصيل كم من المعلومات وتنتهي المسألة؟ أم أن بعضهم قد يقتل ملكة التلميذ في ضبط لغته المكتوبة إن بدا متمكناً منها أو مستعداً لأن يتمكن منها؟

ترى هل يستخدم المدرسون السبورة والطباشير لأداء الهدف التعليمي الحق الذي وضعوا من أجله في الفصل؟ وهل يمارسون دورهم بأمانة في مراجعة أخطاء التلاميذ والتنبيه إلى سبل تصويبها؟ وهل يقرأون تحليل النص كما يكتبه الطالب في الامتحان؟ ويقومون التحليل على المستوى الفردي؟

ترى هل يدخل المدرس حصته من أولها إلى آخرها؟ أم ينصرف إلى أعمال أخرى قد تكون إدارية في أحسن الأحوال؟ وقد تكون درساً خاصاً أو مشروعاً خاصاً خارج مدرسته في أكثر الأحوال سوءاً؟ أم أن حصته قد تتحول إلى حودايت وحكايات شخصية؟ كما تتحول المحاضرة إلى مجرد ترديد لصيغ التهكم والسخرية والقهر والتهديد مما ينتهي إلى تنفير الطلاب من العلم واللغة؟ أو حتى صرفهم عن الإقبال على مصادر المعرفة؟

تُرى ما طبيعة حوار مدرسو اللغة العربية مع رفاقه؟ هل يرقى إلى لغة بقية التخصصات؟ أم أنه يحس الدونية ويستشعر ضعف لغته الخطابية خاصة حين يتنازل

عن فصحاء إلى عامية مبتذلة ضعيفة؟ وحين يتشبث بفصحاء قد تراه متقعرًا متشددًا في انتقاء مفرداته مما يبغض لغته إلى كل خلق الله؟

ترى ما طبيعة الهيئة التي غالباً ما يكون عليها مدرس اللغة العربية؟ هل هي الهيئة الرديئة التي يرسمها الإعلام فيجعل منه موضوعاً للنفور والتنطع وأهلاً للسخرية والاستهزاء أم أن الصورة مختلفة - ويجب أن تختلف - بمحافظته على هيئته وهندامه وتهذيب مظهره فهو صاحب أغلى رسالة لأغلى لغات الأرض كلها!

ترى ماذا يفعل المدرس إن أخطأ في كلمة أو قاعدة؟ فهل له مرجعية يستند إليها؟ أم مكتبة يعتمد عليها؟ أو مصادر يتأملها؟ أم أنها الثقافة المغلقة من خلال العطاء المحدود للكتاب الدراسي المقرر فحسب!

ترى هل يستطيع مدرس اللغة العربية أن ينقل - بأمانة - تاريخ ثقافة أمته العريقة إلى طلابه من خلال قراءاته واطلاعه ومعلوماته العامة ومتابعته للأحداث الجارية؟ أم أن المسألة غابت عن ساحة الفكر التعليمي بالفعل؟!

ثم يبقى سؤال من نط آخر ينتهي إلى الحصيلة نفسها التي ترصدها الاستفسارات السابقة :

ماذا لو أعد مدرسو المقرر مذكراتهم التفصيلية وأوراقهم الإيضاحية للطلاب بدلاً من توزيعها - بشكل مفتعل - في حدود الدروس الخصوصية باعتبارها نوعاً من الإغراء للطلاب في الإجبار على الدروس؟!

ماذا لو وجدنا المدرسين منهمكين في الشرح والتحليل والتوضيح وتوظيف الوسائل التعليمية وزحام السبورات بالأمثلة والشواهد العصرية والنماذج الحياتية؟

وماذا لو تصورنا كل مدرس في حصته من أول دقيقة إلى آخر الحصة ولديه القدرة على الأداء العلمي دون أن يمل هو أو يمله طلابه أو يتمنون انتهاء الحصة أو نسيان المادة أو إلغائها؟

ماذا لو تصورنا مدرسى هذه اللغة وهم يتنازعون الإذاعات المدرسية فيقدمون الكثير من أوعية ثقافتها وفكرها وعلمائها وروادها ومفكرها وشوامها ويعرفون بهم كل أبناء المدرسة.

وماذا لو تصورنا المدرس وهو يكتب تقريراً عن أخطاء طباعية أو نحوية أو إملائية ورفعها إلى الوزارة التى ينتمى إليها؟ أو كتب رأيه في طباعة كتاب أو تحسين مستوى مقرر أو تيسير قاعدة نحوية؟

ماذا لو تم هذا أو بعضه؟: ألا يعد مدرساً واعياً ومفكراً جاداً لا يقتصر على دور التلقين والاستظهار الذى يتهم هو نفسه به قبل أن يتهم الطالب؟

وماذا لو تصورنا أسرة مدرسى اللغة العربية وهم يملأون مدارسهم بمجلات الحائط والصحافة المدرسية والنشرات الثقافية التى تمتلئ بالأخطاء الشائعة وقصداً إلى التحذير منها وتنبيهها إلى توقي الوقوع فيها؟

وماذا لو تصورنا المدرسين وهم يعلمون الطلاب بشكل مختلف بأن يفردوا للضعفاء منهم مجموعات تقوية مجانية، أو بأجور رمزية، حتى يلحقوا برفاقهم من الطلاب متوسطى المستوى أو الأقوياء؟

وماذا لو توقعنا من مدرسى اللغة العربية وهم يقدمون لجمهور مدراسهم كل يوم قصيدة عربية، أو عملاً قصصياً موجزاً أو مقالاً متميزاً؟ ألا يكون مدخلاً لتعويد الناس على سلامة استقبال اللغة والتمهيد لصحة الأداء بها؟

ثرى.. ثرى.. ماذا يدعونا - حقيقة - إلى طرح كل هذه التساؤلات الحائرة وهل نجد لها إجابة أو إجابات؟!

لعل هذه العلامات تعكس ما يوضح به الطلاب والآباء من الشكوى من: إن أستاذ المقرر قد لا يحضر المحاضرات، وإذا حضر فربما لا يشرح شيئاً إلا أشياء معقدة أو كلمات غير مفهومة، وكلها بالعامية فكيف نحب اللغة العربية؟!

والطلاب ليسوا - في الحقيقة - إلا مجموعة من النقاد ممن يجب أن يسمح لهم بأن يكونوا نقادا حقيقيين لأساتذتهم.

تفاقت المسألة وكثرت التساؤلات ، ويبقى ما يبقى في نفوس الطلاب والأساتذة. فثمة شجون تساؤلات كثيرة ، أحسب أن طرحها هنا قد أفضى بكثير منها في ساحة طلاب المدارس والجامعة وكذا الأساتذة هنا أو هناك على السواء ؛ مما يحتاج إلى تأمل ومراجعة وإعادة نظر في آليات مسيرتنا التعليمية ، بدءاً من تقويم المناهج وتدريب المعلم على كل ما هو جديد وعصرى سواء في قراءة المنهج أو أساليب التقويم.

وزارة التعليم العالى ونشر اللغة العربية

أخذت وزارة التعليم العالى على عاتقها ضرورة الالتفات والتنبيه إلى تدريس اللغة العربية لغير المتخصصين في جميع الكليات المصرية باعتبارها اللغة القومية التى يجب الاهتمام بها، وإعادة النظر في مناهجها وسبل تدريسها وتزويد المثقف غير المتخصص بمادة كافية لرفع مستوى الأداء اللغوى وتجاوز ركام الأخطاء النحوية والأسلوبية، ومحاولة تفادى الخطأ الشفاهى في اللغة المنطوقة، ومحاولة تلبية احتياجات الطالب الجامعى بنصوص عربية قريبة، من تخصصه، وتقديم قواعد النحو العربى بسبل ميسرة، مع تهذيب ملكة التذوق لدى الطلاب، ودعم صورة الانتماء الوطنى، والمحافظة على الهوية والشخصية القومية وكانت التوصية الأخيرة للندوة التى تبنتها جامعة القاهرة تحت رعاية وزير التعليم العالى والدولة للبحث العلمى منذ عامين ما نصه "توصى الندوة بوضع برامج لتعليم اللغة العربية لأبناء اللغات الأخرى الذين يلتحقون بالجامعات المصرية باستخدام وسائل التقنية الحديثة في إطار جهود مصر لنشر اللغة العربية في خارج الوطن العربى".

وانطلاقاً من منطوق هذه التوصية الأخيرة كان مدخل مركز اللغة العربية إلى ترجمة رؤية الوزارة والجامعة إلى واقع ملموس يعيشه الآن عدد كبير من

المتدربين من أبناء الجامعات الأجنبية بين محاضرات الاستماع والمحادثة والإملاء والمناقشة والحوار بالعامية والفصحى، إلى جانب تنمية المفردات والقراءات الصحفية والتدريبات النحوية والمقال، حتى إذا ارتقى مستواهم اللغوى أتيحت لهم فرص اللقاء مع أساتذة كبار في مختلف التخصصات بين الجغرافيا والتاريخ والفلسفة والقانون والاقتصاد والسياسة والفنون والصحافة والإعلام، وهى محاضرات تلقى بظلالها الواضحة على صلب التخصصات، يسبقها إعداد لغوى للمحاضرة، ويعقبها تدريب لغوى عليها، قصداً إلى ترسيخها في أذهان المتدربين.

ويصحب العملية التعليمية تدريب عملى في صورة زيارات مهدفة للمجلس الأعلى للثقافة، ومجمع اللغة العربية، ومؤسسة الأهرام، والجمعية التاريخية، ودار الكتب المصرية، ومتاحف كلية الآثار، واستوديوهات كلية الإعلام، ومركز التعليم المفتوح، ومكتبة مبارك، ومكتبات مركز الدراسات الشرقية وغيرها من مؤسسات الفكر والثقافة العربية.

واستمر مركز اللغة العربية في أداء هذا الدور بجدية وتميز منذ أسس له وأصل لإنجاز أهدافه أ.د. محمود فهمى حجازى رئيس جامعة مبارك نور بجمهورية قازاقستان، وأسهمت في إنجاز وتعميق عطائه وزارة الخارجية المصرية ماثلة في دور الصندوق المصرى للتعاون الفنى مع دول الكومنولث والجمهوريات المستقلة حديثاً.

واتسع عطاء المركز، وسار في سياق منظومة التطوير والتحديث التى رفعت شعارها جامعة القاهرة مؤخراً منذ ثلاثة أعوام قصداً إلى إنجاز الصورة المثلى للجامعة المستقبل، التى بدا رئيس الجامعة واحداً من روادها الكبار في دعوته الدائمة إلى حتمية الارتقاء بالجامعة المصرية في صورتها العصرية المتكاملة، وخاصة منها تأكيد علاقتها بالبيئة والمجتمع تفاعلاً وتأثراً وتأثيراً، مع تعظيم دورها في هذا الاتجاه، وتفعيل كل آليات البحث العلمى، وصورة الأداء الجامعى بما يحقق هذا الطموح.

انطلاقاً من توصية الوزارة ومن رؤية الجامعة الحُلم حاول مركز اللغة العربية أن يطور أداءه كل يوم، فتوالت الدورات التدريبية، وتنوعت ثقافات الدارسين بين أساتذة ودبلوماسيين وطلاب، وتعدد معها عطاء المركز، وازدادت مسؤوليته تجاه نشر

اللغة العربية بين كل هذه الفئات، مما استدعى نشر سلسلة من المطبوعات العلمية طبقاً لمستويات الدراسين بين الأساسى والمتوسط والمتقدم إلى جانب دراسات في العامة العربية المصرية، وغيرها من مطبوعات في القراءة والاستماع، ومعها كانت وقفة أخرى عند تطوير الوسائل التعليمية والوسائط المتجددة من استخدام لمعمل اللغات بكلية الآداب، وتوظيف شرائط الفيديو كاسيت.

وما زال المركز في طريقه إلى إعداد أقراص مدجة، واستخدام عصرى لأجهزة الكمبيوتر، وإعداد موقع له على شبكة الإنترنت استكمالاً لصورته العلمية المستقلة. وكان الأصل في إنشاء المركز تنفيذ اتفاقيات جامعة القاهرة مع الجامعات الأجنبية، وتهيئة فرص التبادل الثقافى بين الطلاب، وهو ما تجلّى منه جانب في دور طلاب الجامعات الألمانية التى دخلت عامها السابع هذا العام، ثم اتسعت صور الأداء لتشمل تدريب أساتذة من البوسنة، ثم أساتذة من جامعة الصداقة الروسية وآخرين من جورجيا وغيرهم من طاجكستان، وكذا لعدد كبير من الطلاب الكوريين واليابانيين والإندونيسيين والأوكران والأوزبكيين والجورجيين وغيرهم من شباب الدبلوماسيين من مختلف البلدان.

وبذا استطاع المركز أن يخطو بشكل عملى نحو تحقيق نشر اللغة العربية ثقافة وفكراً وحضارة وفناً بين أبناء اللغات الأخرى، وهو ما يُزكيه التعاون الدائم مع الخارجية المصرية ماثلاً في دور الصندوق المصرى للتعاون الفنى مع دول الكومنولث والدول المستقلة حديثاً حيث ينهض الأمين العام للصندوق بفتح قنوات ثقافية متعددة مع جامعات تلك البلدان، وتستقبل أمانة الصندوق الدورات التدريبية، وتقسم مع المركز صيغ الإشراف وصور المتابعة من خلال قيادات إدارية تتولى الجانب السياحى والتثقيفى المرتبط بها، مع الإشراف الكامل على متابعة إعاشة الدارسين وإقامتهم، أما إدارة المركز فيقف دورها عند حدود إعداد المادة التعليمية المناسبة للمتدربين والتخطيط لها وطبع الكتب والتدريس والإشراف التنفيذى مع متابعة الزيارات العلمية التى تتحول بالضرورة إلى حوارات تغذى عطاء الدورة بشكل مباشر... هكذا تجلت إحدى صور عطاء جامعة القاهرة في خدمة اللغة

العربية بالسعى إلى نشرها بين ربوع العالم في زحام تيارات العولة، ومحاولة تقليص الثقافات القومية أو تهميش دورها الفاعل في المحافظة على الهوية، وتعميق الحس القومى لدى أبنائها.

وهكذا بدأ الإعلام المصرى يأخذ مكانته الطيبة في متابعة هذه الدورات ومحاولة الإبانة عن أهميتها، وبيان دورها في تعميق الإنجاز القومى للنهوض بلغتنا العربية، والتعريف بثقافتنا وتاريخها الأصيل منذ كان العالم القديم يضرب في غياهب الجهل والظلمات.

وأحسبني من خلال تكثيف هذه الدورات لكثير من دارسى جامعات الجمهوريات المستقلة حديثاً أشعر ببعث الثقافة العربية التى ضربت بجذورها العميقة في أواسط آسيا القديمة وفى الغرب الأوربى في العصور الوسطى، حيث كانت ثقافة إنسانية الآفاق، رحبة العطاء أنارت العالم وفتحت نوافذها لتستقبل برحابة وعمق كل ثقافات الدنيا من حولها أخذاً وعطاءً وتأثراً وتأثيراً في كل فروع العلم والمعرفة.

فهل آن للثقافة العربية أن تستعيد تاريخها الذى سطر له الخوارزمى والإدريسى والرازى وابن رشد وابن سينا والخليل وسيبويه وغيرهم كثير جداً من أقطاب الثقافة الإسلامية في شكلها الإنسانى رفيع المستوى؟

نتمنى لهذه الثقافة أن تستعيد وجهها المشرق وتاريخها المضى من خلال مراكز تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، وهو ما نتمنى له نهضة مماثلة فى إعادة النظر في تطوير مناهج تدريس اللغة العربية لكل الناطقين بها.

تحية إلى وزارة التعليم العالى وجامعة القاهرة على تشجيع هذه التوجه القومى، وتحية خاصة إلى الإعلام المصرى حين تستغرقه هذه المتابعة الواعية مما يسهم - بالتأكيد - في تصحيح مسار ثقافتنا العربية على نحو مستقبلى أفضل إن شاء الله.

نعيب لساننا والعيب فينا!!

أن تهاجم اللغة العربية من خصومها وأعدائها فهذا مفهوم ومبرر ومتوقع ويسهل الرد عليه والانتصاف له. أن تهاجم - جدلاً - من المثقفين غير المتخصصين فيها، أو - جدلاً أيضاً - من العلماء الذين يجدون - بحكم التخصص - في اللغات الأجنبية مدخلاً سهلاً إلى توصيل مصطلحاتهم المتعارف عليها دولياً، فهذا مفهوم أيضاً وقد يبرر على مضض واستحياء!

وأن تهاجم - أحياناً - من قبل غير المهتمين بها، أو غير المعنيين بقضاياها ومشكلاتها وتطويرها وتحديثها فقد يبدو الأمر سهلاً وهيناً، أما الذى لا يُقبل إطلاقاً - تحت أى ظرف وأى مسمى - أن تهاجم من أبنائها المتخصصين الذين يحملون رسالة تعليمها ونقلها إلى شباب الجامعات الآن، والذى يفرضون - أو يحاولون - على الطلاب مفاهيم غريبة يلصقونها بالفصحى الجميلة وهى منها براء، فلغتنا يا سادة حية، وليست من اللغات الميتة، فلا هى من اللغات التاريخية التى انتهت عمرها الافتراضى أو تاريخ الصلاحية، ولا هى من لغات الشعائر والطقوس الدينية دون سواها، بل إنها تشرف بأن تكون لغة الدين والدنيا جميعاً، وهى لغة التواصل والتفاعل بين مجتمعات الدنيا عبر مساحة زمنية بعيدة لم ينقطع فيها عطاؤها فكانت بالمعيار الزمنى من أقدم اللغات،

وكانت بالمعيار التقنى أقدرها على التواصل والبقاء، وكانت بمقياس المكان قادرة على الذبوع والانتشار بين المشرق والمغرب الإسلامى بشكل لم يتهاأ لغيرها من لغات العالم القديم والوسيط. ثم كانت فوق هذا كله لغة العلم والفكر، إلى جانب كونها لغة الإبداع والوجدان، وموضع التنافس في الفصاحة والبيان والبلاغة، والتبارى في الصور والمجاز... إلخ.

وبعيداً عن الخلفيات الثقافية دعونا نتأمل خصوصية هذه اللغة عبر الزمان والمكان لتظل الفصحى الوحيدة الجامعة لكل من تحدث ووعى ثقافتها وفكرها، وترجم منها أو إليها، فكانت لغة جسوراً قادرة على أن تتأقف مع كل اللغات بما وهبت من المرونة والعمق وعزة المكانة يوم أن عز أهلها في ركابها - وعزير القوم عن عز ناصره على حد تعبير البحترى - فكانوا لها حماة وسدنة وحفاظاً أقوياء ومناضلين أوفياء.

ولغتنا الفصحى المسورة عاشت وتطورت واستقبلت وأعطت وتأثرت وأثرت، وعرفت الدخيل والأعجمى، واستوعبت الوافد الجديد والمستحدث، وجمعت بين الأدب والفكر والعلوم، فكانت لغة العقل والوجدان، ولغة القياس المنطقى والقياسات الفنية، وكانت أيضاً لغة الإعجاز القرآنى الرائع، والبيات المحمدى الناصع ومحور فصاحة عليه القوم وبلاغة نوابغهم. وهكذا عاشت الفصحى وتعلمقت، لم تعرف الشيب ولم تعابر أعراض الشيخوخة بقدر ما ظلت فتية قوية صامدة أمام كل التحديات والخصومات والافتراءات، وأيضاً أمام الادعاءات والصراعات والأحقاد لكل من حاول النيل منها أو الاقتراب من عطائها المتجدد، وحياتها الخالدة خلود النص المعجز الذى كرمها به الله وشرف أهلها.

وعاشت الفصحى ضمن مرونتها في مصالحة هادئة مع عدد ضخم من العاميات أفرزتها القرى المصرية والقرى العربية، وكذلك المدن بما يحتاج إلى أطلس لغوى يتناولها بالدرس العلمى المتوازن، ولنا أن نتصور مشهد الانقسام اللغوى المتعدد بين العاميات وبين مشهد التوحد الذى تجمع عليه الفصحى أهلها لتظل مقوماً رئيساً من مقومات الوحدة العربية، وتحقيق الحلم العربى المائل في إمكان تحقيقها. فبين التوحد اللغوى والتعددية مسافات ومساحات تحتاج التأمل، وحولهما أيضاً مسافات تحتاج

المراجعة والدرس الهادئ المتأنى قبل إلقاء الأحكام جزافاً، ربما عن جهل، وربما عن تورط قد تفرضه أحياناً الواجهة الاجتماعية أو ادعاؤها أحياناً، أو ادعاء خفة الظل والظرف الاجتماعي ليقال للناشئة على ألسن بعض مدرسيها أن لغتنا الفصحى كانت لغة فترة وانتهت كما انتهت اللاتينية، وأن واقعنا اللغوى يفرض تداول العاميات بدائل للفصحى، ولك أن تتصور منطق الجمع في العاميات والبدايل أمام الأفراد والتوحد في الفصحى لتتوقف عند جوهر ظاهرة التقزُّم اللغوى المزعوم أمام العملاقة اللغوية الرائعة التى تمثلها الفصحى بكل تاريخها الزمانى والمكانى، وبكل مرونتها ويسرها ورحابتها وعمقها وقدمها وجدتها وعظمتها وسموقها.

إن ادعاء المعيد أو المدرس أمام طلابه وهو وهم أهل التخصص أنه يفضل العامية على الفصحى إنما يعكس الكثير من الدلالات والمعانى أبسطها الجهل والقصور والعى عن الاسترسال في الحوار، أو إشهار الإفلاس عن العطاء من العطاء بالفصحى، مما يدعو - على الفور - إلى تغطيته بما هو سهل ومتداول على ألسنة البسطاء من أهل الشارع، فالعامية لغة السوق والمنزل والشارع والفندق والبنك، وهى وسيلة الأُمى والمثقف ونصف المثقف، وليست لغة المثقفين في الجامعة أو المدرسة أو منتديات الفكر أو مؤتمرات الثقافة والأدب، فإن جاز تداول العاميات في غير مجال التخصص فلا يجوز - بالقطع - توظيفها في حقل التخصص المعرفى المنوط بتعليم الفصحى، وإلا فقدنا احترامنا لذواتنا كما فقدنا احترامنا لكياناتنا العلمية التى نعتد كثيراً بها.

وللعامية مجالاتها الخصبة الثرية في حقول الإبداع الأدبى، ولها ضرورات الاستعمال الوظيفى في الحوارات الروائية والمسرحية العاكسة للأبعاد المعرفية والنفسية والفكرية لشخصيات العمل الدرامى أو الكوميدي، ولها أيضاً أقطابها الذين أجادوا انتقاءها وتوصيلها للناس غناءً عذباً ولحناً شجياً فكان الجمهور لها مردداً ومستسيغاً، ولكن ليست كل العامية هى عامية كبار الشعراء المشهود لهم بالبراعة ممن أجادوا التعبير بالعامية والارتقاء بمستواها، فكانت قابلة للغناء والحفظ على طريقة الموال الشعبى الذى يردده البسطاء، ويجدون فيه ذواتهم وذوات أمتهم

دون انحدار متعمد إلى حضيض العاميات الرديئة التى تتم صناعتها على أيدي النكرات والمغمورين وأدعياء الفن ومن سلك سبلهم، مما يتناقض مع تاريخ الإبداع بالعامية في الزجل والسير الشعبية وهى العامية المقبولة جماهيرياً لبعدها عن الابتذال وقربها من الفصحى المحرفة فلها جذور وأصول في اللغة الأم.

وللعامية طرائقها وضرورتها وحقوقها الشفاهية التى نتداولها في حياتنا اليومية بلا حدود، ولكنها لا تستقر عند حد الكتابية إلا بقدر معلوم تحكمه ضرورات الإبداع، مما لا يمكن أن يقترب - بحال - من يسر كتابة الفصحى التى تظل شاهداً على احترام المسافات الكائنة ما بين العميقة والتقرؤ.

إن أبسط صور الأداء الجامعى المتخصص أن نفرس في شباب هذه الأمة حب الفصحى وحتمية الاقتراب منها، والتلاقى معها والتفاعل مع الآخر من خلالها، وألا نسطو على عقولهم التى أفسدتها المدارس - أصلاً - بمزيد من التنفير والتبغيض للفصحى مقابل المزيد من التسطيح والتبسيط والانتشار للعامية على حسابها.

لقد دافع عن فصيحنا عبر التاريخ غير نفر وضعوا همهم في الذود عنها، وعن أهلها، ومن الطريف أنهم لم يكونوا عرباً خلصاً؛ فكان الجاحظ الفارسى صاحب فضل في الدفاع عن العروبة في كتب العصا ضمن " بيانه وتبيينه "، وكان سيويه الفارسى صاحب كتاب " الكتاب " في تقعيد النحو العربى، وكان عبد القاهر الجرجانى صاحب دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وكان غيرهم كثير من كبار العلماء والمفكرين يعرفون أن الثقافة هى أصل الانتماء ومحور الولاء، فدانوا للعربية بكل ما يملكون دون تعصّب لمولد أو نشأة، أو نزعة عرقية أو عنصرية، فملأوا العالم بفصيحنا، ودانوا لها بالولاء وصاروا أساتذة من أهلها، وهنا أصبحت الثقافة العربية إنسانية بكل ما تحمله الكلمة من دلالات لم تعرف حواجز الأجناس ولا الأديان وإلا ما سادت بين أقاصى الأرض وأدانيها بالشكل المشهود لها به.

فإذا كان بعض العلماء من أصول غير عربية قد دافعوا عن لغتنا أفلا يجدر بنا أن نحاسب أنفسنا على كل صور الإهانة والازدراء أو التحقير التى قد يوجهها لها منا نفر من قصار القامة غير عابثين بتاريخها وأصالتها، وغير ملتفتين إلى واجبنا القومى

الذى يفرض علينا تأصيل الانتماء وتأكيد منطق الولاء لهذه الأمة التى كانت خير أمة أخرجت للناس!؟

إننا حين نكره لغتنا فكأننا نكره أنفسنا، ونستشعر الدونية ونرتضيها لأنها - أى اللغة - مدخلنا إلى الفكر، وهى دالة بذاتها علينا، وفى تحقيرها تحقير لذواتنا وتعميق لشعورنا بالتدنى والرداءة، وفى أسوأ الحالات فإن التصريح بالعداء لهذه اللغة قد يبدو جزءاً من مؤامرة رخيصة نشارك فيها بغباء وجهل للنيل منها فهل رأيتم مثقفاً واعياً ينال من نفسه؟ وأحسبها - أى المؤامرة إن وجدت - محكوماً عليها بالفشل سلفاً، والتاريخ شاهد على أصالة لغتنا وضامن لبقائها وصمودها واستمراريتها على الرغم من ظهور محاولات التغريب أو الدعوة إليها، أو تغليب العاميات أو الترويج للغات الأجنبية على حسابها، ولكنها تأبت على كل المحاولات، وصمدت وقويت واستساغت البشرية وذاد عنها حتى غير أهلها، ولا غرابة في أسرار تميزها فهى اللسان المبين الذى أورده القرآن الكريم مراراً في منطقة الفخر والإعزاز وتصوير البيان والإعجاز، وبالمناسبة لم ترد كلمة " لغة " في القرآن الكريم إلا في دلالة كلمة " لسان " عليها، مما يوجب علينا أن نحترمها ونقدرها حق قدرها، وإلا فمن واجبتنا أن نعتذر للإمام الشافعى حين تضطر إلى التناص معه في حكمته المشهورة ؛ لنقول معه مع استبدال كلمة اللسان بالزمان (والباء للمترك بالطبع) :

نعيب لساننا والعييب فينا .. وما للساننا عيب سوانا

فالعييب فينا - أيها السادة - حين نجهل لغتنا، أو حين نعجز عن التعامل الصحيح والصريح بها، والعييب فينا حين نتسابق إلى محاولة النيل منها، أو نقصد إلى ازدرائها وقهرها أو تحقيرها، والعييب فينا حين نعجز - صراحة - عن الوفاء بواجباتنا نحوها دفاعاً وتطويراً وتحديثاً وإعزازاً وتعليماً وإشادة وتقوية وتعميقاً ودعمًا وتشجيعاً وتحفيزاً...و .. إلخ.

والعييب فينا حين نجعل من أنفسنا ضعفاء متهافتين نلهث وراء كل ما هو غربى لأنه غربى ونبغض كل ما هو عربى لأنه عربى، لنصل بذلك إلى قمة التضائل

والضياع، ونصبح أقرب إلى منطق المتأمرين عليها من خصومها حتى وإن لم نكن منهم، فالخصم الصريح والعدو الواضح أفضل من الصديق المراوغ والمنافق، وجدير بنا أن نتكاشف ونتصارع حول موقعنا من هذه اللغة، وموقعها بيننا، حتى لا نظلمها ظلم ذوى القربى الذى رآه الشاعر القديم أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند.

فبيننا وبين لغتنا رحم لا ينقطع، ولنا معها شأن عظيم إن وقفنا في صفها مجددين مطورين، كما صنع الأجداد فسادوا الدنيا وعزوا بها وبكيانها وعززوها ونصروها، وكانوا علماء بأسرارها باحثين عن كنوزها ودررها التى علينا أن نعتدّ بها، وأن نطور مناهجها ونحدّث آليات توصيلها ووسائل التعايش معها وفقاً لأعلى مستحدثات العصر وأرقاها منزلة.

فهل آن لنا أن نتروى في إصدار الأحكام وترويج الأفكار أمام الناشئة والشباب؟! وهل آن لنا أن نكون أمناء مع أنفسنا آمين عليها وضمائرنا حين أصبحنا جنداً في صفوف جيش هذه اللغة التى تستعين بحماتها وحراسها باعتبارها لغتنا الجميلة، التى يستسيغها بعض متابعي برامج الإعلام المصرى الناجح، فهى لغة فريق من شباب الإعلام الذين يقدمون نشرات الأخبار بالفصحى فلا يكادون يخطئون إلا ويتداركون خطأهم، وكذا فرسان مباريات كرة القدم الذين يذيعونها بالفصحى المبسطة وغير ذلك كثير من البرامج الثقافية المتخصصة، وغيره أيضاً كثير جداً. في الجانب الآخر للأسف - من صور الإسفاف والهزال اللغوى والركاكة والترخص الذى يسير في الاتجاه المضاد للصحة اللغوية ويعادى سلامة اللسان العربى، والأدهى والأمر أن يتشدد أنصار هذا الاتجاه بكراهيتهم للفصحى.

لا نريد أن نصل إلى حد تشاؤم شاعر النيل حين صور الفصحى تنعى حظها بين أهلها، ولكن دعونا نتفاعل من خلال روادها وفرسانها الذين ما زالوا ينتشرون في ساحة الفكر العربى، وأحسبهم يجدون فيها ما صورة حافظ على لسانها:

أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي

فلنبحث عن الدر الكامنة في بحر لغتنا بدلاً من توقفنا عن سفساف الأمور، أو أن تأخذنا نشوة التحضر أو ادعاء الفرجة أو ما دونها إلى التنازل عن أصولنا ومقومات شخصيتنا، وعندئذ قد نصبح لقطاع، أو ربما نفقد ذاكرتنا على النحو الذي كان يخشاه أمير الشعراء حين قال (وليس صعباً أن تحفظ هذين البيتين):

مثل القوم نسواتنا ينجهم كلفيط عى في الناس انتسابا

أو كمغلوب على ذاكرة يشتكى من صلة الماضى انقضابا

وأحسبنا في موقف لا نحسد - لا سمح الله - عليه حين نفقد الذاكرة، أو نصبح لقطاع، وأجدر بنا أن نحرص على لغتنا باعتبارها المدخل الصريح إلى هويتنا وشخصيتنا وكياننا القومى الذى يجب أن نبدأ منه لنتهى إليه في عصر التكتلات وتوحد الأمم ؛ حتى وإن تباعدت لغاتها وتباينت ثقافات شعوبها، فما بالك بأمة تمتد في أرض ثرية كرمها ربها برسالات السماء ومهبط الأنبياء وأسمى اللغات، ألا يجدر بها أن تتخذ من وحدة لغتها مدخلاً إلى وحدتها العبقريّة في كل شيء! دعونا نأمل ونحلم ولعلّ الله يحقق الحلم والأمل بتوحيد قلوب القوم على كلمة الحق.

اللغة العربية فى التعليم

من إعداد معلم اللغة العربية

ثمة أصول وأسس ومقومات ينبغى التوقف عندها فى إعداد مدرس اللغة العربية فى صورة جادة غير تقليدية، يستطيع من خلالها المعلم أن يبنى جيلاً محباً للغة القومية، فاهماً لها، مدركاً لجمالياتها، حريصاً على التحدث بها، واعياً بموقعها الحقيقى على خريطة لغات الدنيا من حوله.

ولعل ما أصاب كثيراً من مدرسى اللغة العربية من صور الضعف والتردى فى إقامة اللسان وسلامة الأداء قد زاد العملية التعليمية سوءاً وتعقيداً، حيث أصبح على الطالب أن يتلقى " أكليشيات " معقدة تعتمد على الحفظ والتلقين والاستظهار، دون فهم أو حتى استمتاع بمنطق الفهم ذاته لما هو بصدد تلقيه من قواعد اللغة، أو تأمل جماليات النص المقروء.

والمسألة تحتاج إلى إعادة نظر فى عدة أمور ينتهى الأصل فيها إلى الاطمئنان إلى مستوى معلمى اللغة العربية - أساساً - باعتبار المعلم مدخلاً إلى الرغبة أو التنفير من اللغة طبقاً لمستوى أدائه لتلاميذه، ولذا آثرت أن أطرح المسألة فى نقاط موجزة يمكن أن تفصل فيما بعد فى ورقة العمل ذاتها:

أولاً: ضرورة إجراء اختبارات شفاهية لمعلمي اللغة العربية قبل تخرجهم من الجامعة، على أن ينص على هذا في لوائح الأقسام المتخصصة، خاصة في العلوم اللغوية والنحوية وتحليل النصوص، ثم يتكرر إجراء هذه الاختبارات قبل التعيين مباشرة أمام لجنة من كبار أساتذة التخصص، حتى يستطيعوا الحكم على صلاحية المعلم، لأن يعطى عطاءً متميزاً في مادته أم لا.

ثانياً: إعداد دورات تدريبية تقوم بها المراكز النوعية لتعليم اللغة العربية، وتلقى فيها محاضرات عامة لكبار أساتذة اللغة والنحو وبعض أعضاء مجمع اللغة العربية، مما يسهم - بدوره - في ربط المعلم بحركة الثقافة العربية، ويمكنه من متابعة إنجازات المجمع والأقسام في هذا الصدد.

ثالثاً: محاولة إيجاد قنوات اتصال دائمة بين معلمي اللغة العربية وبين الكليات الجامعية والمراكز ومجمع اللغة العربية من خلال نشرات دورية ترسل إليهم في مدارسهم، تتبنى رصد الجهود المبذولة في خدمة اللغة العربية، أو تطويرها، سواء في إطار ندوات أو مؤتمرات أو حوارات ومداخلات، مما يمثل ضرباً من ضروب التلاقى والإحياء والانتشار لهذه الجهود، ويزيد من قيمة عطائها ويوسع دائرة تأثيرها.

رابعاً: محاولة اصطناع ضرب من المزاوجة بين الفكر الجامعي وفكر رجال التعليم في المراحل التعليمية الأولى، من خلال عرض مناهج المدارس على لجان علمية جامعية، يكون من حقها تقويم المقررات الدراسية، وإعادة النظر في أساليب تقديم المادة للطلاب من خلال دراسات نصية ودقيقة ومهمة، تحكى فصولاً من قصة الحضارة العربية، وتساعد على استكشاف جماليات اللغة، مع دقة التحدث بها؛ أعنى بذلك قراءة النحو العربي من خلال النص، وإزالة صيغ الغموض وصور التعقيد التي تنفر الطلاب منها.

خامساً: إعداد مسابقات علمية يشارك فيها معلمو اللغة العربية بمقترحاتهم أو حتى من واقع شكواهم مما يعانونه مع طلابهم، مع السماح لهم بتقديم

مقترحاتهم، والنظر فيها وتطويرها إذا لزم الأمر، والأخذ في الاعتبار بأن المدرس ألصق بطلابه، وأن الطالب ناقد لأستاذه، مما يستوجب طرح أكثر من استبيان كاشف عن واقع تدريس اللغة العربية من جانب، وعن الطموح المنتظر لها من جانب آخر.

سادساً: تشجيع الإبداع لدى الطلاب في سياق الفصحى، مع التركيز على تصحيح النماذج المقدمة، وإعلانها في أماكن بارزة بالمدارس، مما قد يمتد أيضاً إلى الوسائل التعليمية التى تحتاج المزيد من التطوير والابتكار في سبيل توصيل قواعد اللغة بصورة مبسطة ومرغوب فيها من قبل الطلاب.

سابعاً: عمل زيارات متبادلة بين الهيئات المعنية باللغة العربية وبين معلمى اللغة العربية، وليتنا نفكر في إعداد رابطة تضم هؤلاء المعلمين باشتراكات رمزية، تسهل لهم مهمة تلقى آخر منجزات المتخصصين سواء عبر مؤلفاتهم في تيسير النحو العربى، أو معالجة قواعده، أو في المختارات النصية التى تجعلهم على صلة دائمة بحركة التأليف في هذا المجال.

ثامناً: التفكير في عقد مؤتمر قومى يضم كل المهتمين باللغة العربية، وعرض أوراق العمل الكاشفة عن كل السليات، تمهيداً لمناقشتها وبداية حُطى العلاج الفعلى لها، على أن يشارك في هذا المؤتمر بعض معلمى اللغة العربية ونخبة من التربويين والأكاديميين ؛ ليكون بمثابة رصد فعلى لموقف اللغة العربية بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

تاسعاً: إعادة النظر في إيجاد مساحة إعلامية معقولة كاشفة عن دور معلم اللغة العربية في تنشئة تلاميذه بصورة علمية جادة، ومحاولة إزالة الصورة المهترئة التى كثر ورودها في الأفلام والمسلسلات، واستقرت ملامحها في أذهان المتلقين، حول شخصية المعلم، إذ يجب التوقف عند جوهر الأشياء، وإعادة صياغة الحقائق بشكل واضح تصحيحاً لمسار القائمين على أمر تعليم اللغة واحتراماً لمكانتهم وتقديراً لمواقعهم الاجتماعى من خلال تعليم اللغة القومية.

عاشراً: المشاركة التخصصية مع الإعلام في إعداد برامج تصويرية وتمثيلية قادرة على توصيل قواعد اللغة بشكل ميسر، إضافة إلى تكثيف المسلسلات التاريخية الناطقة بالفصحى، ويمكن إجراء نوع من المتابعة اللغوية الدقيقة من أجل توظيف مادة هذه البرامج في استنباط قواعد اللغة وضمان سلامة النطق بها، وتوجيه التلاميذ إلى ممارستها - قدر الإمكان - في حياتهم المدرسية بشكل يومي.

المادة القرائية التراثية

أولاً: أساليب معالجة المادة القرائية التراثية :

يقصد من وراء هذه الأساليب ما وراء التثقيف القرائي بعد الاطلاع على محتوى المادة، بحيث يتوقف الدارس من وراء قراءتها على ما يلي (الوظائف المنوطة بالمقروء التراثي) :

١- تأمل قراءة الجملة العربية بدءاً من المستوى الإفرادى للكلمة إلى تراكيب المفردات وصياغة الجمل، وكيفية النطق بها من خلال التدريب الواعي على توظيف قواعد النحو العربي التي يجب أن تأخذ منحى تطبيقياً لدى الدارس. وهنا يتوقف الدرس عند توزيع قواعد النحو طبقاً للدروس المختارة، مع إجراء قياس متعدد عليها من واقع المقروء الفصيح في سياق الحياة المعاصرة (التركيز هنا على النحو الوظيفي من خلال النص).

٢- يحسن أن تغطي هذه القراءات معظم قواعد النحو العربي خاصة منها ما يكثر تداوله، وتعامل من خلاله، والأكثر خصوصية ما يبدو عرضة للخطأ الشائع، ويحسن - بل يجب - المسارعة إلى تصحيحه، فتنحول المادة القرائية - آنذاك - إلى محاولة تغطية وافية لكثير من الموضوعات، مثل النواسخ - مثلاً - وتقديم الخبر، ومثلها مشكلة العدد بكل صور كتابته، إلى ما يشبه ذلك من

جمل كثيراً ما يخطئ المثقف في كتابتها، أو النطق بها دون أن يعي أو يعترف أو ربما يشعر أنه قد أخطأ في أدائه.

٣. التوقف - نظراً وتطبيقاً - عند بعض معاجم اللغة البسيطة التي يجب على الدارس أن يعرف كيف يتعامل من خلالها على المستوى اليومي، ثم تعميق هذا الاتجاه من خلال تعرف المعاجم الكبرى، ووسائل التعامل معها، وكيفية إدخال المادة اللغوية، ثم كيفية انتقاء المعانى المتسقة مع السياق اللغوى الذى كان بصده لحظة احتياجه للتعامل مع المعاجم.

٤. اتخاذ المادة القرائية مدخلاً إلى تحليل قواعد الكتابة العربية، وهذه المسألة مهمة يجب أن تؤخذ مأخذ الجد ولا يستهان بها، حيث يجب التفصيل في معرفة هذه القواعد من أبسطها إلى أعقدها من خلال المادة المكتوبة، مما يستدعى وقفة الدارس طويلاً عنده، فيعرف الضرورى ومنها، كما هو وارد في معرفة كتابة الهمزة بصورتها المتعددة، أو كتابة الألف اللينة، أو الزيادة والنقص الإملائيين، أو سبيل تعرف أصول الواوى واليائى، أو ما يشبهها من مجالات كتابية قابلة للخطأ في حياتنا اليومية مما يشير إلى نقص واضح في مستوانا المعرفى بأصول كتابة لغتنا القومية.

٥. التوقف بالدارس عند حدود واضحة من دائرة التبسيط لما يتلقاه من قواعد بحيث يسهل عليه دائماً طرح قياسات عليها من خلال اللغة اليومية (الفصحى منها بالطبع)، ولا مانع - آنذاك - من التوقف به عند الحدود الظاهرة بين الفصحى والعامية، خاصة إذا ما تلاقت بعض المفردات أو تقاربت الاشتقاقات هنا أو هناك، والمهم أن يظل مدركاً لبساطة الأداء بالفصحى، حرصاً على سلامة النطق بها وصحة التراكيب من خلالها مما يحميه من أخطاء القراءة وأخطاء الكتابة على السواء.

٦. تخصيص جزء من الدراسة حول رصد الأخطاء النحوية والإملائية الشائعة، فمن المؤكد أن الوقوف على هذه الأخطاء سيؤتى ثماراً طيبة في إمكانية تجاوزها، وهو ما يخلص مثقفينا من مجموعة ضخمة من التجاوزات في منطوق اللغة ومكتوبها في

آن واحد، خاصة إذا ارتبط بهذه الأخطاء المقاييس الصحيحة لتلاقيها والخلاص من هيمنتها وشيوعها.

ثانياً: الحدود المقترحة لطبيعة المادة التراثية موضوع القراءة:

تبدأ هذه الحدود وتنتهى عند الاعتبار التالية:

١- البحث عن مناطق الانتماء وصيغ المواطنة وترسيخ الحس التراثى في سياق النصوص القديمة، وهو ما يتم من خلال عملية مسح واستقراء شامل لنصوصنا الشعرية والنثرية بحيث يقع الاختيار على ما سهل منها، وما اتضحت معالمه شريطة أن يحمل مضموناً كاشفاً عن هوية الثقافة العربية وخصوصيتها وتمايزها، مع التعرف - تاريخياً - على فترات المد الحضارى التى تفاعلت فيها تلك الحضارة مع حضارات الدنيا من حولها أخذاً وعطاءً وظلت متماسكة محافظة على هويتها وانتماءاتها إلى حد ملموح.

٢- الوقوف عند ظواهر الحس القومى في التراث العربى ومبررات ظهور هذا الإحساس، وأبرز تجلياته على مختلف المراحل التاريخية، وفى موازاة هذا التوجه يأتى الانفتاح الفكرى من واقع مواد قرائية أخرى تحكى قصة الانفتاح الفكرى للعرب على كل ما جاورهم من الأمم والحضارات، وهنا تأتى أهمية اختيار المادة التراثية الكاشفة عن الدور الحضارى للعرب بدءاً من التأريخ لقصة الحضارة الإسلامية التى فتحت آفاق الفكر أمام العالم منذ أنشأ الرشيد دار الحكمة، ودونت علوم الأوائل، ونهض قلم الترجمة بدور بارز في هذا الانتفاع على ثقافة الآخر قراءة وهضماً واستيعاباً ووعياً وإضافة ومشاركةً وابتكاراً.

٣- تحديد مجموعة من القراءات الخاصة من نصوص ما ترجم من الثقافة العربية أو إليها، مع الإبانة عن تطور حركة الترجمة ذاتها ومدى ما أضافته إلى العقلية العربية من تفتح واندماج حضارى، ولا مانع - في هذا الإطار - من تناول قراءات - مثلاً - من كتابى أرسطو (فن الشعر، فن الخطابة) وكتابات الفلاسفة وعلاقتهم بالمنطق اليونانى وغيره من ثقافات الأمم المجاورة.

٤. ضرورة تعريف الدارس بأبرز المدارس الفكرية التى عكست مناهج وتوجهات معينة في أطر الثقافة العربية بدءاً من الدرس البلاغى إلى الدرس النقدى إلى التاريخى، وحتى الامتداد بدراسة المناهج إلى تناول خطوط الفكر في مدارس علوم الأوائل بين مدارس المفسرين والمحدثين، إلى مدارس الفلاسفة والمتكلمين، إلى المدارس العلمية الكبرى التى انتهى إليها أقطاب كبار مثلوا إضافات متميزة في تاريخ الحضارة الإسلامية.

٥. انتقاء قراءات عربية كاشفة عن دور العقلية العربية في استيعاب علوم التربية وعلم النفس والمنطق والجدل، وانتقال عدوى المشاركات العلمية إلى عالم الشعراء في سياق الحماسات والمختارات الشعرية المتعددة.

٦. التوقف - تاريخياً - عند التعرف على تاريخ الكتابة العربية بين مستوياتها الحيوية المرتفعة بتاريخها المبكر قبل عصور التدوين، وتتبع حركة التطور الحضارى للظاهرة في عصور تدوين العلوم ومواد الإبداع، واستمرار انفتاح العرب حضارياً على الكتابة خاصة مع معرفة الورق والأحبار والمكتبات الخاصة والعامة التى عرفتها عواصم الخلافة الإسلامية في العصر العباسى بين المشرق والمغرب.

٧. تعميق دراسة مصادر الثقافة العربية القديمة وما حفلت به في عصر الثقافة الموسوعية عبر المناظرات والمساجلات ومحاضرات الأساتذة ومناقشات الطلاب في ظل امتداد دور المساجد لأن تكون دُوراً للعلم إلى جانب دُورها في العبادات، وكيف دارت المحاورات والمناقشات وتأسست الفرق والاتجاهات من خلال مناظرات الأساتذة وطلابهم مما رصدته لنا - مثلاً - كتب الأمالى والمجالس، وما تركته من أرصدة متميزة أسهمت في إثراء الفكر العربى. وما زالت قادرة على إثراء عقلية القارئ المعاصر.

٨. انتقاء قراءات خاصة ومعقدة تحكى قصة إنسانية الحضارة العربية الإسلامية التى انفتحت - بلا حدود - على كل الأمم والأجناس من حولها ولم تضع حواجز الأديان ضمن حساباتها، فكانت حضارة إسلامية شاملة وواعية نات عن منطق التعصب وحركتها إنسانية الفكر أكثر من أى اعتبار آخر.

٩. لا مانع من طرح مشكلات اللغويين على ما لها من خطر وأهمية في التعريف بأهمية الأطلس اللغوى والفوارق بين العاميات العربية وبين الفصحى، على أن تستهدف الدراسة تعريف المثقف الجامعى خريطة اللغة المتداولة عبر الأقاليم العربية وحتى المدن والقرى، ربما بدا من الطريق أن يعلم شيئاً عن الأصول والفروع وما بينهما من وشائج وصلات حميمة، وهى الصورة التى لا تكتمل إلا بتعرّف جهود مجامع اللغة العربية ودورها الفاعل في حراسة أصول اللغة وصيانة مقوماتها مع تطويرها وتطويعها لاستقبال حضارة العصر، ويحسن أن تنهض المجامع بمد الدارسين ببعض نشراتها الدورية حول ما يتم تعريبه من مصطلحات، أو حتى حول طبائع الجهود المبذولة من علماء اللغة في هذه الاتجاهات.

١٠. الوقوف على ما في المادة القرائية المنتقاة من كشف عن منظومة القيم العربية والإنسانية العامة في ظلال المفاهيم الفلسفية العميقة لقيم الحق والخير والجمال، إلى جانب القيم الأخلاقية المتعلقة بالصدق والأمانة وكرم الخلق وإنسانية العلاقات من واقع حوارات وأحداث تاريخية متميزة، تتضمنها بعض تلك القراءات وتستهدف تعميقها من واقع التأصيل لجذورها الموروثة والحرص على تنميتها ورعايتها.

ماذا تقرأ أمة (اقرأ)

أمة شرفها الله بالعلم منذ دعاها إلى أن تقرأ كل أسرار الكون وتاريخ الخليقة لتتخذ من القراءة مدخلاً لتواصل الحياة واستمرار العطاء، فماذا تقرأ أمتنا الآن فى خضم الأحداث الجسام التى تشهدها أراضيها ويموج بها واقعها المرير:

١ - عليها أن تقرأ - أولاً - أصولها الثقافية والفكرية وأن تنهل من مصادرها الثرية بدءاً من ثقافتها الدينية إلى اللغوية والبلاغية والمعجمية والنقدية والأدبية، ففى قراءة كل هذه الأرصدة الغالية ما يضمن للأمة بقاء لغتها، ونقاء فكرها، وصفاء معتقدها بعيداً عن الشوائب والشبهات وبنأى عن العدوانية وأصحاب المؤامرات.

٢ - عليها أن تقرأ تاريخها أخباراً وأحداثاً ووقائع ومواقف، وأن تستخلص منه العبر والعظات، وتحيل التاريخ إلى جسور للتواصل والتلاقى والتفاعل مع الآخر من قبيل التعارف الإنسانى بعيداً عن التعصب والانغلاق، وأخذاً بمنطق التسامح والانفتاح وقبول الدنيا كلها بشكل إنسانى رحب، على غرار ما كان من مسلك الأجداد.

٣ - عليها أن تعيد قراءة الموروث وصياغة التاريخ بشكل آمن يحافظ على كيائها وينأى بها عن منطق المزايدين والخصوم ممن قد يقصدون إلى تشويه ذلك التاريخ، أو مسخ صوره ومشاهده، أو الاعتداء على مواقفه المشرفة وشواهدة المشركة، أو التجنى على صفاته الناصعة لصالح أى من أعداء الأمة.

٤ - وعليها أن تقرأ من منظور عصرى متجدد يحقق للأمة العتيقة كل صور التحديث والتطوير وملاحقة ثورات العلم والتكنولوجيا إيماناً منها بأصالة ماضيها وعمق واقعها، والاحتكام إلى صحة عقول أبنائها وهم أحفاد خير أسلاف الأرض الذين ملأوها علماً ومعرفة فى كل فروع الفكر، فكانوا معلمين للعالم كلها فى عصور الظلام فى العصور الوسطى.

٥ - عليها حين تقرأ ألا تنحاز إلى غيرها فتظلم نفسها أو تظلم ماضيها، بل عليها أن تجدد عقب الماضى فى ثوب عصرى قشيب، ولغة عصرية متجددة تعكس عمق الفكر وأبعاد الثقافة، وتستوعب كل صور الثقافة بوعى مستقبلى متميز.

٦ - عليها أن تقرأ نفسها قراءة ناقدة فاحصة تكتشف فيها نفسها، وتعيد اكتشاف أخطائها وعيوبها، تصحيحاً للمسار وإنقاذاً للسفينة من الغرق، وتوجيهها للدفة على الاتجاه الصحيح، ومقاومة عنف التتار. وحين تقرأ نفسها قراءة نقدية تستطيع أن تحدد موقعها من خريطة العالم، وأن تظل لها بصمة دالة عليها بعيداً عن التشويه والمسخ والتجاهل والنسيان.

٧ - عليها أن تقرأ حاضرها قراءة صحيحة من خلال تفرقها وانقسامها، لتسعى إلى رأب الصدع وجمع الشمل؛ انطلاقاً من وحدة الفكر والمصير مع وحدة الأصل واللغة والثقافة، فهى وحدة العقل ووحدة الوجدان مما جعلها أمة مبدعة قبل أن تكون عالمة، فامتدت حلقات تاريخها فى تواصل مشهود يظل نادراً أن نجد له نظيراً فى غيرها من الأمم.

٨ - عليها أن تقرأ ما حولها وما يحيط بها، وما قد يحاك لها من مؤامرات مصدرها الأحقاد أو الغيرة أو الكراهية والضغائن، ففى كشف المؤامرة ما يوجب

الخلاص من شرورها، ويضمن استمرار المسيرة والقفز إلى المستقبل بخطى واعدة.

٩ - عليها أن تقرأ أفضل ما أنتجه الحاضر من ثورات العلم وتراكم المعارف وتقدم التكنولوجيا، مما يوجب التفاعل والتفاهم معها، وليس الأمر مجرد استيراد أو استهلاك زائل، ولكنه الفهم والوعى والدخول فى معترك الحياة العصرية بكل أبعادها.

١٠ - ثم عليها أن تقرأ لغة عدوها وفكره وتكشف أبعاد مخططة التدمير، وعليها أن تعد العدة من خلال القراءة المتأنية لصور مكره ودهائه، حتى تستطيع أن تقف له بالمرصاد وتقهر كل محاولاته البربرية الخسيسة التى ترتد بالإنسان إلى عصور الفوضى وغيبة القانون.

فهل قرأت أمة "اقرأ" كل هذه الأبعاد وأشباهاها؟ فلا شك إن قرأتها بأمانة وموضوعية ووقفت مع الذات وقفة أمينة تراجع وتناقش وتداول لتصل إلى كلمة سواء، تعكس موقعها الذى حدده لها خالقها حين جعلها أمة وسطاً، وجعل من أقطابها شهداء على الناس، ثم شرفها بأن جعلها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتقيم حدود الله فى الأرض بعيداً عن تعطيل الشرائع والأحكام، إن هى أحسنت فهم كلمة (اقرأ) وانطلقت منها لتقرأ كل شىء تنتقى منه أفضل ما يتسق مع المنطق الإنسانى القويم.

فلسفة التعليم باللغة العربية واللغات الأجنبية

تظل العملية التعليمية في حاجة ماسة إلى اصطناع الازدواجية المتوقعة بين مصادر الثقافة العربية ومصادر الثقافات الأجنبية، مما يحتم على الدارس ضرورة تعلم إحدى اللغات الأجنبية - على الأقل - وإتقانها نطقاً وكتابة لتكون سنداً له في الاطلاع على الثقافات الأجنبية، ومحاولة اختراق حواجز المكان واقتحام مجالات الفكر، ومناقشة فكر الآخر عن فهم ووعى من قبيل الإثراء لفكر الأمة ولغتها، وهو ما يتأكد من خلاله منطق الانتماء للثقافة الأم من جانب، وما قد يضيف إليها بما يثريها ويزيدها عمقاً ونضوجاً من جانب آخر.

من هنا كانت نقطة البداية الصحيحة التي نادى بها مجمع اللغة العربية، ولم تؤخذ مأخذ التنفيذ - حتى الآن عندنا - في قضية تعريب مصطلحات العلوم الطبية والهندسية وغيرها من علوم كيميائية وطبيعية، وقد أخذ بها التوجه في بعض الدول العربية، ولعله أثبت نجاحاً فيها، ليبقى علينا أن نجرب توظيف هذا النمط في مساق التلاقي والالتحام بمواد الثقافة الأجنبية، لعله يزيد لغتنا العربية ثراءً بإمدادها بأرصدة جديدة من تلك المصطلحات المعربة في شتى مجالات المعرفة، ولعله يثبت أيضاً ويؤكد قدرتها على التطور وقابليتها

لاستيعاب تلك المصادر والتفاعل معها والانطلاق من خلال الوعي بأبعادها، وهو ما قد يمثّل صورة العطاء التي منحها العربية لتلك اللغات من قبل على مدار تاريخ العصور الوسطى.

ومن هنا كانت دوافع طرح هذا التصور المبدئي لإمكانية الأخذ بنظام تعريب العلوم، إلى جانب ما صاحبه من الحرص على إجادة اللغات الأجنبية أو التعامل الجاد من خلال موادها العلمية، مما يضمن للدارس العربي المزيد من الانفتاح على ثقافات الدنيا من حوله، قبل أن تحيط بنا العولمة من كل اتجاه، وهى آتية - لا محالة - وليست أمامنا مجالات لإغلاق فكرنا دونها. ولا إمكانية إيقاف انفتاح الفكر العالمى على ثقافتنا بقدر ما يجب أن نمتلكه من وسائل لحماية أنفسنا للمحافظة على هويتنا بمزيد من التجارب مع مقومات ذلك الفكر فهماً ودراسة ووعياً، ومع الانفتاح عليه أخذاً أو رفضاً، قبولاً أو نقداً، استحساناً أو استهجاناً، إذ يظل المهم أن نسجل لأنفسنا موقفاً ورؤية إزاء كل ما نواجهه في زحام التكتلات الثقافية المستقبلية، التى يحملها إلينا القرن الجديد، والتى بدأت بشائر زحفها خلال الأعوام الأخيرة من القرن المنصرم.

وينطلق هذا الفهم من ضرورة تأمل قضايا التخطيط والتنفيذ لهذا التصور المطروح بدءاً من إعادة النظر في تكوين كوادرات تعليمية واعية، تستطيع أن تؤدى دوراً فاعلاً في مستوى التخطيط للبرامج العلمية، وتهيئة الظروف المناسبة، ووضع آليات الأطر التنظيمية الجادة التى تيسر تكوين الطالب في المرحلة الجامعية، لعلها تصحح مساره من خلال التجريب الدقيق للتعامل مع المصطلح العربى في موازاة التقاط المصطلح الغربى، دون أن يكون بديلاً له في كل الأحوال، ودون أن يسقطه من حساب مادة علمه بالضرورة كلما أحس احتياجاً إليه.

وأتصور أن يبدأ هذا التأسيس من خلال مستويين :

أولهما : إعداد مادة قرائية تراثية تزيد من تعريف الطالب بدور الموروث العربى في التأسيس والتأصيل للثقافة الغربية التى فتحت علينا أبوابها الآن من كل جانب، وكنا على مدار زمن طويل أصحاب العطاء عبر نشاط حركة الترجمة التى شهدت عصور

ارتقاء الحضارة العربية من موازاة عصور الظلام في أوروبا، وفي إطار المقترح من المادة المقروءة تراثياً يمكن أن تتأمل التوصيات الآتية :

١- ترشيح قراءة نصوص مختارة من التراث العلمى العربى بما يمثل كل توجهات العلم وتفتح مجالات الفكر مثل اختيار نصوص طبية لابن سينا / ونصوص فى علم الطبيعة لابن الهيثم، ومثلها نصوص فى بقية العلوم فلكية / رياضية / هندسية، مع التعليق على موسوعية المرحلة، وكشف طبيعة توظيف اللغة بوصفها أداة للنبوغ فى أى منها، حيث استوعبت العربية كل هذه العلوم، ولم تعلن يوماً عن إفلاسها على الإطلاق فى توفير المصطلح العلمى المناسب لكل علم منها على حدة، أو فى سياق تداخلاته مع العلوم الأخرى.

٢- التوقف عند نصوص نثرية متقاة كاشفة عن مراحل الإشراق فى الكتابة العربية المنشورة من خلال قراءات خاصة فى أقسام النثر العلمى والفلسفى والتاريخى، ونصوص الرحالة الجغرافيين والمؤرخين، وغير ذلك من أساطير الفكر العربى فى كل فترات التحول الثقافى التى شهدتها.

٣- انتقاء نصوص شعرية مما يجب أن يتم بحرص شديد يكشف عن طبائع حركات الثبات والتجديد التى شهدتها مراحل تطور الحياة العربية، مع التركيز على صيغ التجديد التى شهدتها مراحل تطور الحياة العربية، مع التركيز على التجديد فى المدارس الفنية، ودراسة الاتجاهات المتميزة التى كشفتها القصيدة العربية عبر حركتها على مدار توالى عصور التاريخ الأدبى على اختلاف ما شهدته مقاييس حياتها العلمية.

٤- قراءات خاصة فى مناهج المؤرخين والفلاسفة، وتأمل أطروحات أعلام الفكر العربى، مما يساعد على اكتشاف خصوصية الحضارة العربية وتفوقها من جانب، ثم يعكس قدرتها على العطاء لكل ثقافات الدنيا من حولها، أو حتى الأخذ منها من جانب آخر.

٥- قراءات خاصة فى كتاب قديم يحسن انتقاؤه بدقة وروية، وتأمل الخطى المنهجية التى حكمت توجهات العقلية العربية فى عصور التأليف الموسوعى، على غرار ما

عرفته كتابات الجاحظ أو ابن خلدون، وغيرهما من شوامخ الفكر العربى ورواده الكبار.

٦- قراءات موجهة تكشف طبيعة تداخل مصادر الفكر بين الشعراء والمفكرين على غرار التعريف بالحماسات مثلاً. أو تحليل دور الشعراء في تطور حركة النقد العربى من خلال قراءات خاصة لنصوص نقدية منتقاة يتوفر لها منطق السهولة ويتحقق لها منطق التشويق في آن واحد.

ثانيهما: ضرورة الانفتاح على الثقافة والفكر المعاصر من خلال تبنى حركة الترجمة التى تضيف الجديد - بالتأكيد - إلى فكرنا، وتعمق لدينا المفاهيم، وتزيد الرؤى عندنا وضوحاً. وهنا يظل من واجبنا أن نطرح عدة توصيات في هذا الصدد تحديداً، تبدأ من التسليم بوجود حيثيات مبدئية يحسن التسليم بها ورصدها بشكل موجز باعتبارها "تحصيل حاصل" بلغة المناطقة، حيث تبدأ من حتمية الاعتراف والتسليم بأن الترجمة علم وفن تتجاوز - في صورتها الصحيحة - حدّى المعرفة بالمعاني، معان مباشرة أو غير مباشرة لأن تصبح مطباً ضرورياً وملحاً يقتضى الوعى بأسرار اللغة المنقول إليها أو منها على السواء.

والترجمة قد لا تنقل الأصل بكل خصائصه وسماته الفكرية أو الأدبية، ولكنها يجب أن تقارب ذلك حتى وإن بقى لذلك "الأصل" قسماته المميزة، أيّا كانت درجة مهارة المترجم، أو براعته في توظيف أدواته ولغته. فحسبه الاقتراب منه بالعمق الذى يحسب له في ترجمته.

ويظل اعترافنا بأهمية الترجمة وخطرها أمراً مقررّاً أيضاً باعتبارها نافذة فكرية ومدخلاً حضارياً نطل منه على فكر العالم من حولنا، أو يطل علينا ذلك الفكر من خلالها بما يضمن لهويتنا العربية مزيداً من التواصل وعدم الانغلاق، كما يضمن لها المزيد من الصقل والانفتاح على كل ثقافات الآخر ومناهج فكره ومواد إبداعه.

كما تظل الترجمة - بكل المقاييس - ركناً أساسياً يضمن للمكتبة العربية المزيد من النضج والاكتمال من خلال تزايد إيقاع التفاعل المعرفى والحوار العقلى (وحتى

الوجداني) مع أى من معطيات الثقافات المحيطة بنا، إذ لا نشك في أنها ستظل مدخلاً إلى المحافظة على عالمية اللغة العربية ماثلة في فكرها ودراساتها وحقوقها المعرفية الواسعة.

وتزداد أهمية الترجمة وضوحاً إذا أشرنا إلى جهود سابقة فيها تترأى لنا من خلالها الأدوار المتعددة التي نهضت بها بعض المؤسسات الثقافية العربية حين تبت حركة الترجمة بالدراسات القرآنية والحديثة تحاشياً للخلط في المفاهيم، وتجنباً للوقوع فيما حول المصطلح - مثلاً - من قبل الأجنبي مما لا يخلو من سيطرة الأهواء أو - على أحسن الفروض - قد تصدر عن تقصير في فهم ما حول النص من مقومات الإعجاز وأسرار البلاغة، وهو ما لا يتهياً ببساطة لكثير من أبناء اللغة الأم، فما بالنا بغير أبنائها ممن يصرون على التصدى لأخص صورها بالترجمة، أو اقتحام أسوارها المجازية والتصويرية الخاصة!

وإذا كانت الترجمة تحمل وجهة نظر صاحبها على المستوى الفردي، وهى لا تبرأ - ولا تكاد - من سطوة المنطق الذاتى، فمن باب أولى أن يتسلح صاحبها أمام النصوص المقدسة بأدوات يتفق عليها من قبل علماء الدين وأهل التخصص دون تهاون في ذلك؛ سعياً إلى ضبط حركة ترجمة النص المقدس من خلال علماء اللغة الأم ممن يطمأن إلى درجة الثقافة في وعيهم بما وراء معانيها الظاهرة من معان أخرى، هم أقدر على فهمها، وهم أولى ببثها من خلال ما يترجمونه وينقلونه عنها.

وإلى جانب دور الأزهر الشريف يتجلى دور مجمع اللغة العربية في الرقابة الصارمة والتوجيه الواعى لحركة الترجمة في مختلف حقوقها المعرفية، بل يحسن أن يتم التنسيق بين المجمع العربية، حتى يتسنى لها الالتقاء على كلمة سواء في منطقة توحيد المعربات من جانب، أو في إرساء مبادئ الترجمة وترسيخ قواعدها؛ خاصة في مجال الترجمة من العربية إلى أى من اللغات الأجنبية من جانب آخر.

وفى كل الأحوال، فإن دور المجمع سيعمق - بالتأكيد - المادة المترجمة ويضمن عدم تشويه النص الأصلي، ذلك التشويه الذى قد يرد عن قصد أو عن جهل، وبذا نكون قد ضممنا رقابة الهيئات الإسلامية واللغوية على ما يذاع مترجماً في كل أنحاء

العالم وعبر لغاته المتعددة، لينتهى الموقف إما إلى تصحيح مسار الدعوة من خلال نشر الثقافة الإسلامية العربية، وإما - وهذا مطلب حيوى وأشد خطراً - إلى تصحيح المفاهيم حول مبادئ الدين وقيمه، أو أسرار اللغة وطاقتها التصورية والإيحائية.

ويبقى لوزارة الثقافة دور مهم أيضاً في الترجمة الواعية لمواد الأدب العربى قديمه وحديثه ؛ حرصاً على نشره وضماناً لذيوعه بين ثقافات العالم في صور غير مشوهة تبدأ من دقة الانتقاء، وتنتهى عند دقة المعالجة، مع امتلاك الأدوات من خلال أشباه لها على غرار ما كان يطرح من أعمال في إطار سلسلة الألف كتاب، أو ما يهيئه المشروع القومى للترجمة من تعميق لهذا الاتجاه.

ثم تبقى أماننا التوصيات التى قد تسهم في استشراف آفاق أفضل في حقول الترجمة ؛ حتى تتحدد أبعادها وتبين ملامحها فيما يلى :

١- التركيز على إبراز دور الترجمة وخطرها وضرورتها في حوار الثقافات مما يبرش بمزيد من تأكيد عالمية اللغة العربية، سواء في سياق دراستها الموروثة (علوم الأوائل) بين ثقافة إسلامية أو أدبية، أو بين قدرتها على احتواء لغة العلوم في شتى صورها العلمية والتجريدية.

٢- إعداد خطة قومية متكاملة تبدأ من تحديد أمهات المراجع والمصادر وتصنيفها ابتداء بالأولى بالترجمة، حتى يسهل الاستفادة منها، وإطلاع الدارسين عليها بما يهيئ لهم الفرص لتعرف صورة مشرقة من مواد الإبداع باللغة الأم، على أن يكون المترجم هنا ملماً بمحفل المادة المترجمة وما حوله من حقول معرفية ومجالات مساعدة تهيئ لبلورة أفكاره حول جوهر المادة المترجمة، وما حولها من معارف هامشية تكمل صورتها.

٣- الإصرار على استعادة - أو إحياء - الدور المعظم الذى لعبته التراجم العربية في توجهات الفكر وتجديد مساراته التى ارتقت في فروع معينة في العصور الوسطى، مع محاولة إحياء للأنماط والمواد المترجمة بشكل عصرى متجدد، يضاف إليه ما يتمخض عنه التخطيط السليم لحركة الترجمة العلمية التى تسجل إنجازات

البشر في كل بلاد الدنيا، وهى تيسر لنا الاتصال بها، والإفادة منها، أو نشر ما أنجز عندنا على المستوى نفسه في مجالات العلوم الطبية والهندسية وغيرها.

٤- ويبقى في صناعة الترجمة أشياء لا تقبل التنازل ولا تجدر المساومة حولها: منها ما يتعلق بصقل ثقافة المترجم، وضمان وعيه بالسياق العام لما يترجمه، لعله - بذلك - يتجاوز مثل ما وقع من أخطاء للعرب في بدايات ترجماتهم لكتاب الشعر لأرسطو حين ترجموا المأساة مديحا والملهة هجاء، فمن الضروري أن نطمح إلى تجاوز حرفية الترجمة، أو التوقف عند قاموسية الألفاظ، حيث يشغل بها المترجم الضعيف في البداية مما قد يسئ إلى النصوص المترجمة، وهنا يظل مطلوباً من المترجم - أيضاً - الإلمام بتراث الثقافتين المنقول منها والمنقول إليها، حتى يمتلك الأدوات بشكل واع على غرار ما صورته القدماء من أمر أبى موسى الأسوارى، حين كان يفسر الآية القرآنية بالعربية والعرب عن يمينه ثم بالفارسية للفرس عن يساره، فلا يدرى بأى اللسانين هو أبين على حد تعبير الجاحظ.

٥- كما يحسن الإلحاح على تشكيل لجان متخصصة لمراجعة المواد المترجمة بما يضمن صحتها ودقتها وتحديد مدى صلتها بلغة الأصل مما يطمئن إلى عدم تشويه المضامين كما يضمن - على الأقل - ندرة الأخطاء فيما هو منقول من المادة، إلى جانب اتساق المادة المترجمة مع تيارات الفكر السائدة، أو الأنماط المقبولة في المجتمع على المستويات الدينية والاجتماعية والسياسية والفكرية بوجه عام.

٦- ضرورة تشجيع معارض الكتب المترجمة وتنشيط أسواقها وتيسير تناولها اقتصادياً بعد ضمان مصداقية الرقابة عليها، باعتبارها وسيلة اتصال مهمة بالثقافة العالمية، وسبيلاً إلى المشاركة والإسهام الفاعل في مقومات تلك الثقافة.

٧- وربما بدا بديهياً - أو في غير حاجة إلى تأكيد - وعندئذ تكفى الإشارة إلى ضرورة توفير وسائل العمل بين أيدي المترجمين، وما يتبع ذلك من إلحاح على تفرغهم العلمى لصياغة الأعمال المترجمة مع كفالة حماية مترجماتهم من سطو آخرين عليها لتكتمل للحركة صورتها لعلها تنتهى إلى سلامة الأداء وثراء اللغة.

وانتقالاً من هذه التصورات المتصلة بضرورة الاهتمام بالترجمة من العربية وإليها تنطلق الرؤى المستقبلية محكومة بمطلب إعادة النظر في المنظومة التعليمية من خلال تأمل دور اللغة العربية ذاتها في تأكيد استمرارية الانتماء من جانب، وضمان انفتاح المستقبل العلمي الواعى من خلالها من جانب آخر.

ولا شك أن تحقيق أى من هذه الأهداف قد يظل مرهوناً بزيادة أعضاء هيئة التدريس من ذوى الخبرة والاختصاص والتدريب الكافى بشكل عصى. وبشكل مطرد يتناسب مع الزيادات الطلابية المتوقعة في الأعداد؛ مما يتطلب اصطناع غط من أنماط الاتساق بين الأمرين، حتى يمكن أن يعاد توزيع الطلاب بشكل مقبول يسمح بأداء التدريبات اللغوية، وتلقى المزيد من صبغ تحليل النص اللغوى، أو حتى تقديم أبحاث يمكن مناقشتها وتقوم ما فيها من أخطاء منهجية أو علمية، مما يعد خطوة مبدئية على طريق تعليم الطالب الجامعى جانباً من منهج البحث في صورته النظرية والتطبيقية.

ومع هذه الزيادة المطلوبة تظل الحاجة قائمة - أيضاً - إلى استمرار توظيف تكنولوجيا التعليم على مستوى انتشار ورش العمل ومجالات التطبيقات التحليلية، إلى جانب ما هو متوقع - بالتأكيد - من صور أخرى مساعدة تنهض بها القنوات التعليمية المتخصصة، حيث تزيد من رسوخ المادة العلمية المتداولة في الوسط الطلابى عبر مختلف التخصصات العلمية في الكليات الجامعية.

ولا شك أن ثمة أسساً وقواعد يحسن التنبه إليها إدراكاً لخطر دورها، واعترافاً بضرورة الصدور عنها في مجال تحقيق هذا الطموح، مما يوسع من دائرة الثقيف بالعربية، حتى تتجاوز أنصاف المثقفين، ليرتقى دورها فتصبح اللغة الحاوية لمجمل المكونات الثقافية العربية بشقيها القديم الموروث والجديد المعاصر معاً.

ومن هنا أيضاً كان وجوب إعادة النظر في فلسفة التعليم باللغة العربية أمراً مهماً، ينبغى أن يسير في اتجاهين متوازيين:

أولهما: يتعلق بالعلوم المكتوبة بالعربية أساساً؛ مما يتطلب إعادة النظر في محتواها، ثم إعادة صياغة المناهج القائمة - بالفعل - مما يتطلب مراجعتها، ولضمان الحد الأدنى من صيغ الجمع بين الأصالة والمعاصرة، قصداً إلى إقامة لسان المثقف العربى بشكل سليم، دون ابتذال أو إسفاف لغوى، وليصبح خريج الجامعة في أى من مجالات العلم، أكثر تمكناً من توظيف لغته القومية في كتاباته وحواراته العلمية على وجه التحديد.

ثانيهما: يتعلق بطبيعة المادة المنقولة من الثقافات الأخرى، وهذه يجب المحافظة عليها في سياق المترجمات، مما يتطلب قيام فريق عمل من المترجمين بمراجعة دقيقة لها بعد ترجمتها من قبيل الاطمئنان إلى سلامة لغة الترجمة، وتجنب الركاقة وتجاوز صور الانحدار اللغوى التى يخشى من تأثيرها على اللغة ذاتها، فما لنا بلسان جمهور المتلقين الذين يعتمدون مصداقية المترجم دون تردد.

أما في مجال التعليم باللغات الأجنبية، فيظل الأمر هنا محدوداً باعتبار هذه اللغات مدخلاً من المداخل الضرورية لاستكمال أدوات الدارس، وضمان تفاعله في سياق مجالات التخصص، سواء تمثل ذلك في إدراك مفهوم المصطلح، أو كشف ما وراءه من دلالات الصياغة، مما يتطلب - بدوره - إعادة النظر في مدى جدية تدريس اللغات الأجنبية في المرحلة الأولى من التعليم الجامعى، فمن الملاحظ أن جرعات الثقافة الأجنبية تبدو مهمشة إلى حد بعيد وواضح؛ خاصة إذا استبعدنا المواد التخصصية، وكان اللغة الأجنبية بدت أقل مستوى مما درسه الطالب في مرحلة التعليم قبل الجامعى، الأمر الذى بات مطلوباً - وبالحاح - إعادة تقييمه والنظر فيه بحزم، ومناقشته في إطار مرجعى واع، يستهدف وضع برامج تعليمية واضحة المعالم تجعل لتعليم اللغات الأجنبية معياراً يكشف جدواها لتتجاوز مرحلة سد الفراغ من قبل المدرسين، وتقديم مادة جديدة لها أهميتها في إعادة تشكيل الثقافة والإضافة إليها، مما يساعد الطالب على إجادة لغته، وإلى جوارها - على الأقل - لغة أخرى تظل مساعدة له فتتجاوز حد التهميش الذى تعاني منه الدراسة الجامعية الآن خضوعاً

لستويات الأداء من خلال تعليم تلك اللغات. وقبل نهاية الحوار يحسن رصد خلاصة فلسفة التعليم بالعربية من خلال عدة محاور:

١- أن نضع كما صنع القدماء حين ترجموا، فأضافوا وشاركوا وابتكروا وكان ما ترجموه من فكر قد حثهم على المزيد من الإنتاج المعرفى الكاشف عن هوية الأمة وعبقريّة أقطابها الكبار، فلم يعرفوا الانقطاع الفكرى عن ذواتهم أو الآخر.

٢- أن نعيد النظر في تدريس اللغة العربية لكل المثقفين في جميع التخصصات العلمية صقلاً للسان، وإقامة الجملة وتأصيل الوعى بمدركاتها وما تحمله من دلالات، فمن غير المنطقى أو المقبول أن يجهل المثقف لغته الأم ويجيد غيرها وهو محسوب عليها.

٣- أن ثمة نقطة التقاء يجب أن تتم بين المجامع العربية للانتهاء إلى موقف أكثر وضوحاً وجلأً إزاء تعريب مصطلحات العلوم، ويحسن هنا توحيد الصياغة بين هذه المجامع على مستوى الأقطار العربية المختلفة.

٤- لابد من الاستعانة بأحدث صور التكنولوجيا في النهوض بمقومات العربية وإعادة توظيفها في خدمة العلم والثقافة، لاسيما وأنها معروفة بتراثها وعمق معانيها وكثرة مجازاتها، وتعدد صور الاشتقاق فيها؛ مما يدعو إلى مزيد من الثراء اللغوى الذى يجعلها جاهزة لاستقبال أى مصطلح علمى، قابلة لاستيعابه واحتوائه وإعادة التعبير عنه.

٥- يظل تاريخ لغتنا العربية - باعتبارها لغة العلوم أيضاً - شاهداً لها لا عليها، وهى الشهادة التى تجعلنا شديدي الحرص عليها من جانب، وعلى تطويرها لتساير متغيرات الحياة من جانب آخر، وفى كل الجوانب تظل اللغة بوتقة جامعة لكل ما تنتجه ونبذعه، وتزداد ثراءً - بالتأكيد - إذا ما اقتحمت عالم الترجمة نقلاً منها أو نقلاً إليها على السواء.

من قضايا الإبداع في الشعر والنثر

(بين لغة الشعر ولغة النثر)

الشعر والنثر كلاهما حقل إبداعي له خصوصيته وله مقوماته ووظائفه، وكلاهما صادر عن تميز في ملكة المبدع من جانب، وعن سيطرته على أدوات بوصفها أداة لنقل تجاربه إلى الآخرين من جانب آخر.

وحول طبيعة التميز بين لغة الشعر ولغة النثر، تستوقفنا سمة " التركيبية " للنوع الأول في مقابل " التحليلية " للنوع الثاني، فمن البدهى أن المتلقى - أيًا كان مستوى ووعيه النقدي - يعجز عن تلخيص بيت شعري في أقل من كلمات البيت ذاته، على عكس ما قد يقع في القراءة النثرية التي يمكن إيجاز محتواها بشكل مبسط ومعمق، سواء أقصدنا بذلك إلى تلخيص رواية أو رسالة أو خطبة أو غيرها.

وتتجاوز فكرة " تركيبية " اللغة هنا منطقة المجاز إلى اتساع ما تحمله الألفاظ من دلالات ومعانٍ ثانية تظل كامنة وراء المعاني الأولى، وكأن الشاعر - وهذا جزء من خصوصية إبداعه - إنما يكشف عن تمكن خاص من مفرداته وتراكيبه التي لم تأت سهواً، ولم ترد عفواً الخاطر بقدر ما جاءت كاشفة عن تزاوج

تجاربه مع معطيات ملكته التى أصقلت ثقافته ونماها فكره، فُربَّ صاحب تجربة عميقة عجز عن تصويرها بسبب افتقاده الأداة، وُربَّ متمكن من أدواته مفتقد للتجربة وقف عاجزاً عن الإبداع هنا أو هناك.

ومعنى هذا أن "تركيبية" اللغة الشعرية تظل معلقة بكم الطاقات المشحونة فيها، تلك التى يفجرها الشاعر مع أول لحظة لولادة العمل وبدايات تخلقه، لتخرج علينا حروفه وكلماته وجملته وصوره الجزئية والكلية، مرتبطة بخصوصية الموقف وتفرد لحظة المعالجة.

من هنا كان الإقدام على تحليل النص الشعرى محاطاً بالأخطار، فهو مختلف من حيث امتلاك الأدوات عن تحليل النص النثرى، وكأن الناقد هنا يجب أن يقارب ثقافة المبدع - إن لم يتجاوزها - لأنه سيفوص بالتأكيد - وهذا مطلب نقدى - وراء كل الشحنات الكامنة بين ثنايا لغة النص، وعليه - آنذاك - ألا يستسلم أمام مقولة أن المعنى فى بطن الشاعر، وإلا حكم على نفسه بالفشل وعلى النص بالموت وكذلك المبدع، وعلى أدواته بالقصور، إذ يظل من واجبه الغوص وراء تلك الأعماق، ومحاولة استنباط المعانى الباطنة التى وظفها الشاعر فى صورته وتقاريره.

ومن هنا أيضاً تأتى خصوصية لغة الشعر، لا من قبيل التعالى على بقية مستويات الأداء اللغوى فى الفنون النثرية، ولكن من واقع تولد النص ذاته ؛ الأمر الذى يحتم على المتلقى ضرورة الوعى بالمعانى الثانية والتوقف عندها، وتأمل ما وراء المجاز من دلالات وما يحمله التصوير من مساحات وفضاءات، تحتاج إلى تأمل ومزيد من الاستكشاف.

أما لغة النثر فتظل - بطبيعتها - قابلة لأن تجوز وأن يتصرف المتلقى فى اختصارها، باعتبار ما فيها من تحليلية المعالجة الإبداعية أساساً، أعنى بذلك أن خطبة ما يمكن لقليل من الألفاظ أن تستوعب محتواها، دون أن يفقدها ذلك كثيراً من مقومات صياغتها الجمالية فى ظلال نوعها الأدبى، ومع هذا يظل من حق الناثر أن يعرج ما استطاع على اللغة التصويرية، وأن يصدر نوعها مع الحرص - إن أراد - على المستوى الصوتى ما بين سجع ومجانسة وغيرها، وله أيضاً أن يتعامل مع مفرداته

وتراكيه كيفما شاء، ولكن الخط الفاصل سيظل قائماً من خلال هذه التحليلية المؤكدة للغة الشعرية بصفة خاصة. ويبقى أن نعترف بأن الشعر والنثر قد عاشا باعتبارهما نوعين أدبيين في ظلال حقبة تاريخية متوالية كان بينهما من التصالح والتكامل الكثير، صحيح أن مكانة الشاعر والنثر قد أصابها بعض الخلل بأن تعلو إحداها على حساب الأخرى في بعض الفترات، ولكن الحقيقة الثابتة أن اللقاء بين الكتاب والشعراء ظل ماثلاً، في ثنايا ذلك الحرص على صنعة القصيدة أو صنعة الرسالة، الأمر الذي يظل جامعاً بينهما إلى الحد الذي قد نكتفى فيه بدراسة الخلفية الفكرية للمبدع في أى من الفنين، فإذا بالخلفية ذاتها تغنى عن مثل دراستها في الفن الآخر، ولا أدل على ذلك من هذا التوازي بين المدارس الفنية في الشعر والنثر على السواء ولنضع أمامنا في هذا المجال تحديداً دراستي أستاذنا الدكتور شوقي ضيف حول الفن ومذاهبه (في الشعر العربي) والفن ومذاهبه في (النثر العربي) سواء بسواء، حيث سارا في مذهب الصنعة أو التصنيع أو غيرها من الاتجاهات التي قد تتفق عليها أو تختلف حولها نقداً، ولكن المؤكد أن التوازي سيظل شاهداً على حتمية ذلك اللقاء بين الفنين من جانب، ثم خصوصية لغة الأداء في كل منها من جانب آخر.

رفقاً بالإسلام ولغة القرآن

- ١ -

حين يمتد الحوار أو يدور الحديث حول تشويه صورة الإسلام أو الرغبة في تصحيحها لدى الغرب، وكذا حول ضعف اللغة العربية أو تدهورها فإن الموقف يحتاج - بالتأكيد - إلى ضبط حدود المفردات وبيان مقاصد المصطلح في حجمه الطبيعي. ذلك أن "الإسلام" سيظل ديناً شائعاً، باعتباره خاتم ديانات الله في الأرض، ولن يصيبه تشويه أبداً كانت محاولات خصومه، ولن يحتاج إلى تصحيح إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فقد تكفل رب العزة بحفظ دينه وكتابه، ولكن المسلمين هم الذين يحتاجون إلى حتمية الحوار حول صورتهم الآن تصحيحاً أو تعديلاً أو ما يقاس على عالمهم وسلوكياتهم من مفردات، بالضبط كما فعل القرآن الكريم مع مفردة "الشعر" التي لم ترد فيه سوى مرة واحدة في سورة (يس) "وما علمانه الشعر وما ينبغي له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين" ولم ترد الكلمة في مواضع التحريم، وإلا حُرِّم الشعر صراحة، ولكن القرآن طرح في آيات أخرى كلمة "شاعر" وفي غيرها كلمة "شعراء" واستثنى منهم فريقاً واتهم منهم آخر، فبدأ الفرق بعيداً بين المساس بالشعر بوصفه ضرباً من القول، وفناً رفيعاً من فنون الكلام، وجنساً من أجناس التصوير والتعبير، وبين الحديث عن الشعراء المضلين والضالين ومن

اتبعهم من الغاوين، وعن آخرين منهم " آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا".

بالقياس نفسه يظل من واجبتا تبرئة " الإسلام " ديناً ومصطلحاً ولغة وأحكاماً وشرعية وعبادة وتكاليف ومعاملات وفكراً ومعتقداً وعملاً من أية شبهة في أى من مراحل تاريخه، وكذا وجوب حمايته من منطق أى حاقداً أو مغرض أو كاره أو منافق أو معاند أو متعصب أو عنصري يدعى إمكانية تشويهه (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين).

ستظل مفردة " الإسلام " سليمة سلامة اشتقاقها من حروفها الثلاثة (سلم) بكل دلالاتها المعجمية رفيعة المستوى؛ لتظل محاطة بسياج قوى من الحماية الربانية العليا، ويظل من واجب المسلمين أن يؤدوا أدوارهم تجاه " إسلامهم " بإعلاء شأنه، وعدم الإساءة إليه تطرفاً أو ترخُّصاً، وعدم الاستخفاف بالمفردة إساءة أو تخلفاً، أو المغالاة في إصدار الأحكام على عباد الله بلا مبرر، فالمسلم الحق من سلم المسلمون من لسانه ويده، وهو القائم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده وقوة كلمته، أو حتى بقلبه في أضعف الإيمان، وهو مأمور بالجدل بالحسنى والرفق بالآخر، والدفع بالتى هى أحسن مع كل خصم مجادل، حتى ليصبح ولياً حميماً بعد عداوته.

هنا تظل مفردة الإسلام قادرة على إصدار إشعاعها على الدنيا - كما كان شأنها دائماً - بكل قوتها وإبهارها ولو كره الكافرون أو ادعى المزايدون - أما كلمة " المسلمون " على أسلوب الحكاية فتظل موضع نظر بين مسلم حقيقى ومسلم دعى ومسلم متطرف ومسلم متنع ومكلف وآخر متسامح وبسيط، وغيره متعمر أو متفقيه، فهذا هو موضوع الجدل ومصدر إثارة الشبهات، مما قد يحتاج إلى تحديد الصورة وضبط المسلك وتصحيح المسار، عوداً بالإسلام إلى صورته الصافية الرائعة التى بثها بين البشر المبعوث رحمة للعاملين في عصر المبعث بعيداً عن تحولات المسلك، أو مخالفة الأصول، أو اختراق الثوابت التى تظل أصلاً في الأديان لا يمكن التنازل عنها ولا يجب الإساءة إليها أو المساس بها بحال.

والحديث عن المسلم وصورته التى تحتاج إلى تصحيح هو ذات الحديث الذى يمكن طرحه حول المسيحى واليهودى دون المساس بالمسيحية واليهودية بوصفها ديانتين سماويتين، إذ يجب تحديد المصطلح الذى نتحدث عنه حتى تظل ديانات السماء بمنأى عن اهتراءات البشر أو أخطاء الأدعياء.. وما أكثرهم!!

ويظل الصحيح في صورة المسلم الحق والتى ينبغى أن تتجلى أمام الآخر بعيداً عن التشویش أو التشويه هى مشهد العابد العامل العالم المتواضع الباش في وجه أخيه المسلم مع الآخر، بوسطيه فكره بلا مغالاة في التشدد، ولا ميل إلى التهاون في معتقده، هو المسلم الحى الذى ينأى عن الرذائل، ويؤكد الفضيلة بمسلكه ومعاملاته التى تتطابق مع أقواله وأفعاله، فلا يتحاسد ولا يحقد ولا يتباغض ولا يفحش ولا يؤذى الناس ببوائقه، ولا يجاهر بارتكاب المعاصى أو إتيان الكبائر، بل سرعان ما يتوب إلى خالقه، أو يعتذر لمن أخطأ في حقه.

المسلم الذى لا يشيع الفاحشة بين المسلمين. ولا يتنازع بالألقاب، يألف الآخر فيؤلف، بعيداً عن الغيبة والنميمة، أو انتهاك الحرمات والأعراض المسلم الذى لا يبدأ بالعدوان، ولا يبادر بإيذاء الآخر، بل يغيثه ويحيره إن استجاره، يكرم ضيفه، ويفرج كرب ذوى الخطوب. ينأى عن التدليس والغش والمخادعة والنفاق وخلف الوعد وكذب الحديث وخيانة الأمانة والعهود. فهل التزم المسلمون اليوم بكل هذه السلوكيات وبما يتفرع عنها من فضائل كثيرة هى الصورة المثالية الرائعة للمسلم الحق كما عاشها الرعيل الأول وكما رسمها لهم إسلامهم؟ أم أن المشهد تغير مع تغير الأزمات وانشغال الإنسان بمتاع الدنيا وفتن الحياة وضجيج الحضارة المادية واختلاط الأجناس وانصهار الأمم والشعوب وثقافت الأفكار بين أقطاب الأرض في زحام حركة التاريخ ورصد مشاهد التطور والرغبة في ملاحظتها أيًا كانت السبل والغايات.

حدثت تحولات في صورة "المسلم" وليس في صورة "الإسلام" وهذا هو محك الحوار، حيث تظل هذه التحولات هى موضع المسألة والبحث والمناقشة حول طبيعتها وأبعادها، وسبل علاجها وتصحيحها، وهو ما يرمى إليه القاصدون إلى الخير

في كل المجتمعات الإسلامية حين يعلنون عن رغبتهم في تصحيح صورة الإسلام، والحق أنهم يقصدون تصحيح صورة المسلم التي يُسأل عن تغيّرها القوم لأن (الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم). والتغير والتحوّل والتطور سنة كونية تفرض على الإنسان قانونها بما لا ينفي ضرورة توقّفه أمامها في منهج التعامل، وطبيعة المسلك القويم الذي لا يتنافى مع مقدساته، وثوابت معتقده، وقيم أمته، وهو ما يعكس - بدوره - وسطية الإسلام وتجديد الفكر الإسلامى من خلال تجدد عقول أبنائه وقدرتهم على استيعاب مستجدات العلم ونظرياته فهماً ومتابعةً ووعياً، ثم إضافةً ومشاركةً وإبداعاً.

- ٢ -

ومن البدهى في صورة المسلم الحق أن يتلاقى لديه منطق القول مع جنس العمل، وأن يتوحد إسلامه مع إيمانه، وإلا كان من شأنه تفرّغ الإيمان من مضمونه الحقيقي على غرار ما قد نجده من أمر المسلم على طريقة الأعراب ممن قالوا آمنا، والحق أنهم أسلموا فقط، أو مثله كمثل المؤمن المنافق، أو المؤمن الفاسق أو الزنديق أو صاحب الإرجاء، أو الغارق في اللهو والمجون، أو مرتكب الكبائر دون التوبة النصوح، وكذا كل من يؤذى عباد الله بلسانه أو يده أو سلطانه أو جاهة، أو يتجاوز في معاملاته إلى قبول الفساد أو التستر على أى صوره أو قول الزور أو غيرها من أمور، تغرى بها دنيا الفساد في غيبة احترام الرقيب الأعلى تغييب سطوة صوت الضمير على الإنسان.

من هنا كانت صور المسلمين ممن وقعوا ضحايا هذه المثالب عمداً أو سهواً في حاجة إلى تصحيح المشهد، ومثل ذلك تأتى صورة كل من تجاوز حدود السلوك الإسلامى القويم الذى أصّل له رسول البشرية، فكان خلقه القرآن، يتمتع بحياء الإيمان، وامتلاً قلبه رحمة بأمته، فما كان فظاً ولا غليظ القلب، بل كان على خلق عظيم، كما زكاه ربه، فأصبح رحمة الله المهداة إلى البشرية، ونوره الذى أخرجها من ظلمات الضلالة إلى طريق الهداية، وكان بقومه رؤوفاً رحماً فترك منهم نفراً عبدوا

ربهم فأحسنوا وأجادوا، وحرصوا على أخلاقيات دينهم ففتحوا الدنيا وسادوا، ولا أحسب المسلمين الذين أنجزوا الفتوحات الإسلامية لأعتى إمبراطوريات الأرض إلا أصحاب مثل عليا، وقيم رفيعة استمدوها من معجم الإسلام، حيث كان لهم شرعة ومنهاجاً في المسلك والخلق القويم إلى جانب العبادات والتكاليف، وعلاقتهم المتينة بحبل الله الذى لم تنفصم عنهم عراه، فكانت ضمائرهم بمثابة الرقيب الضامن للإنسانية علاقتهم في أعلى صور تحضرها وأرقى مشاهدتها.

وكذا كان فكرهم الإسلامى الذى انتشر تحت ظلال التسامح وغيبة التعصب، فانفتح على فكر الآخر أخذاً وعطاءً، تأثيراً وتأثيراً حواراً وجدلاً، كانت شريطته الحسنى، بعيداً عن التطرف والتشنج أو الاستعلاء. فاستجابت لهم الدنيا. وخضع أباطرة الأرض، ونطق بالشهادة وآمن بالعقيدة من لم يكن يتكلم العربية، نطق الفصحى وقرأ قرآنه، وأبدع حول إعجازه، وكشف أسرار بلاغته، وأدهشته روعة صوره وإحكام إعجازه، ودقة تراكيبه ودلالاته.

وهكذا كان شأن المسلمين الأول ممن ارتقوا بصورة المسلم فأصبح النموذج الرفيع للتعامل مع الآخر حباً وتسامحاً ومساواة وقبولاً وحواراً وعدلاً؛ الأمر الذى أصابه ما أصابه من تحولات وخلل، جعل من المطلوب تصحيح صورة المسلمين وليس الإسلام؛ فالإسلام هو الإسلام كما نزل بقوانينه وثوابته وأحكامه ومعاملاته وأخلاقياته المثلى وقيمه المطلقة وبقيت النسبية أصلاً في اقتراب المسلمين منه أو ابتعادهم أحياناً عنه، مما يحتاج إلى مراجعة النفس، وإعمال النفس اللوامة لاكتشاف موقعنا الحقيقى على خريطة الإنسانية، وهل ما زلنا نعيش مرحلة المسلم المثالى القدوة والنموذج، تلك التى نجدها في دقائق أخلاقيات السلف الصالح حين نطلع على سيرته، أم تحولنا عنها ونسينا منها أشياء ربما تحتاج إلى تلك الوقفة، وذلك التأمل، وهذه المراجعة، مما يحتاج إلى تصحيح المشهد والصورة؟ ألم يقل سيدنا عمر - رضى الله عنه - رحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا. فماذا لو أدركنا أخطاءنا وعرفنا طريق التصحيح حتى نستحق ما وعد الله عباده الصالحين من الذين يستغفرون لذنوبهم حين يعترفون بها؟

وإن تعجب فعجب آخر - بالقياس نفسه - هجوم بعض القوم على اللغة العربية ،
واتهامهم لها بأنها ضعفت أو تخاذلت عن مواكبة تقدم العلوم والتكنولوجيا أو
تدهورت بين أبناء هذا الجيل !

والحق أن الاتهام غير دقيق حين يمس اللغة في ذاتها من قريب أو بعيد، ذلك أن
حقيقة الاتهام يجب أن توجه وتركز على أهل اللغة من أبنائها الذين هم جديرون
برعايتها وحمايتها، وضمان تقدمها وتحضرها وتواصلها، كما صنع أسلافهم
على مدار حقب التاريخ ؛ فاتهام اللغة في ذاتها ضرب من الخطل والظلم، لأنك
تتهم أقدم لغات أهل الأرض، وأشرفها منزلة، ويكفيها شرفاً أن نزل بها أقدس نص
لل بشرية، التي لم تعجز عن فهمه بقدر ما شغلها إعجازه وإبهاره وبلاغته
وجمال لغته وصوره وتقاريره، وامتدت دهشة العرب من حروفه المقطعة إلى
سوره وآياته الكريمة بلا حدود . لغة هذا كتابها لا يمكن إلا أن تكون لغة أصيلة،
قوية، رصينة، مرنة، رجة، إنسانية، عريقة، فتية لا تعرف الشيخوخة، أو
الهرم، ولا ينال منها الدهر الذي ينال من كل شيء، ولا يقهرها الزمن أيّاً كانت
خطوبة ونوائبه، بقدر ما تعرفه من التجدد والتطور وعبقورية الأداء مع مرور الحقب
وتوالي العصور.

ولكن لغتنا تحتاج - بالضرورة - إلى فريق من الأمناء عليها، وأهل الغيرة على
أرصدها التاريخية والمعاصرة، مع فريق من حمايتها وحراسها يقومون على تحديث
مناهجها، وتجديد آلياتها، وإكسابها ثوباً عصرياً يفوح منه عبق التراث والحضارة
معاً، دون تخاذل أو تكاسل أو تراجع أو استخفاف أو ازدراء.

فلغتنا عبقرية بماضيها، وأحسبها تظل عبقرية - أيضاً - بحاضرها ومستقبلها
لاسيما إذا أحسنّا إليها كما أحسنت إلينا علماً وديناً وفكراً وثقافة وفناً في كل مراحل
المديرة المدبرة وعمرها المتجدد. وإذا كان للاتهام من مسوّغ فمن باب أولى أن يوجه
إلى العرب أنفسهم، كما وجه من قبل إلى المسلمين في قضية تشويه صورتهم ؛ ذلك

أن أبناء اللغة هم أولى بالدفاع عنها فيما بينهم وبين خصومهم وأعدائهم؛ وسيجدون من رصيدهم ما يدعم أسلحتهم الدفاعية، فلم تكن يوماً لغة هزيلة ولا كانت ضعيفة بقدر ما بدت قادرة على البقاء قدرتها على قبول صور التحديث والتطور، حتى في أحلك فترات الهجمات الشرسة عليها وعلى أهلها. علينا - إذا - أن نتهم أنفسنا بأننا :

❖ قَصَرْنَا في حق لغتنا حين فشلنا في توصيلها للأجيال الجديدة بأساليب سهلة ميسورة بعيداً عن التعقيد والصعوبة التي قد لا يستسيغها الجيل الجديد، وربما بحكم ما أتيح له من وسائل تكنولوجية، هيأتها له ثورة الاتصالات والتراكم المعرفي المذهل عبر الحاسب الآلي وشبكات الانترنت وتعدد وسائط التعليم المعاصر؛ الأمر الذي يحتاج - بالتأكيد - إلى تحديث مناهج اللغة وتحديث فكر القائمين على أمرها عبر دورات تدريبية، أو توفير مناهج معاصرة يحسن أن ينهلوا منها ويطبقوها بما ينقذ الوجدان الأدبي للطلاب مما أصابه من الفجاجة والإفساد والرغبة في الانقطاع المعرفي عن التراث أمام بريق المادة المعاصرة؛ مما يستدعى إعادة قراءة التراث وإعادة برجة القديم في منهج عصرى جديد.

❖ قَصَرْنَا في حق لغتنا حين اكفينا بتشخيص ما أصابها من المرض على أيدي نفر من القوم عجزوا حتى عن التحدث بها أو الكتابة الصحيحة بمفرداتها وتراكيبها، وكانت نتيجة العجز رغبتهم في تغطية الجهل بالهجوم على اللغة ذاتها واتهامها بالصعوبة والتعقيد، واللغة من اتهاماتهم براء، فالعيب فينا نحن لأننا لم نتمرس بها جيداً، ولم نحرص على تصحيح أخطاء نطقنا وكتابتنا، ووجدنا في ادعاء الفرَنجة ونشر العامية ما يمكن أن نزاحم به الفصحاء في صورة من المباهاة والبلاهة، دون أن ندري خطر ما نفعله وهو أننا نهدر أغلى ممتلكاتنا، ونهدم أرقى صروحنا الفكرية، ونهمش شخصيتنا وكياننا، ذلك أن الأمة التي تفرط في لغتها فهي تفرط في عرضها وتاريخها وخصوصيتها وقوميتها، وعندها قد تصبح أمة لقيطة لاتعرف لها أصلاً مشروعاً، أو تصبح أمة فاقدة الذاكرة لا تعرف لها ماضياً إذا استعرنا تعبير أمير الشعراء في قوله المشهور:

مثل القوم نسوا تاريخهم كلقيط عىً في الناس انتسابا
أو كمغلوب على ذاكرة يشتكى من صلة الماضى انقضابا

ونعوذ بالله أن تكون أمتنا كذلك، وعليها أن تذود عن لغتها حتى لا تقع فريسة
مستهدفة لضجيج التيارات الثقافية الهادمة، بكل ما قد ترمى إليه من تهميش أو
تسطيح للثقافات القومية العريقة.

❖ ثم امتد تقصيرنا حين توقفنا عند حد تشخيص المرض، الذى أصبحنا نحن منه
بمثابة الفيروس أو الميكروب الذى هاجم اللغة، يقويه ويظاهره فيروس المؤامرات
الخارجية التى تقصد إلى النيل منها. أدركنا أعراض المرض، وبات من الواجب علينا
أن نحدد طبيعة العلاج، صحيح أننا عرفنا وحددنا مصدره النظرى عبر المؤتمرات
والندوات والجمعيات والتوصيات، ولكننا لم نُحسن توزيع جرعات الدواء، إذ ربما
نعرف كيف نبدأ رحلة العلاج الحقيقية من خلال: تفعيل التوصيات وتعظيم
دورها، والنهوض بها، إنجازاً فعلياً على أرض الواقع الثقافى والتعليمى، بعيداً عن
المزایدات أو الادعاءات بأن كل شىء تمام، وكل المناهج قد طُورت وحُدثت حتى
وإن جاء التحديث في صور شكلية على أغلفة الكتب، مما ينأى عن التجديد والتطور
الفعلى الذى تنعكس آثاره - أول ما تنعكس - في قدرة لغتنا على جذب أبنائها
إليها، إلى جانب ما يتقنونه من لغات أخرى يظل تعلمها أمراً ضرورياً ومهماً، ومطلباً
عصرياً ملحاً شريطة ألا يكون ذلك على حساب اللغة الأم، التى يعد التفريط فيها
تفريطاً في كرامتنا وهويتنا.

والآن بات من واجبنا وقد عرفنا المرض وشخصنا أعراضه، وعرفنا العلاج أن
نبدأ مرحلة العمل والإنجاز الفعلى في شكل واقعى، ننتظر نتائجه بعيداً عن التشدد
والانفعالات أو التباكى على أحوال اللغة، وكأننا نكتفى بموقف المتفرج الذى يسهم -
دون أن يدري - في زيادة المحنة وتفاقهم الأزمة، بدلاً من أن يشارك في القضاء عليها
من خلال طوق النجاة الذى يمتلكه فكراً وثقافةً وعطاءً ومشاركةً وتجاوباً.

من هذا المنطق يظل من حقنا أن نوجه أى اتهام إلى أنفسنا - أبناء اللغة - بدلاً من أن نلوم اللغة التى اختارها رب العالمين لتكون لغة قرآنه العظيم، الذى تكفل بحفظه وحفظها معه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) صدق الله العظيم، ومن هنا وجب الرفض بالإسلام ولغة القرآن، ووجب التصحيح لصورة "المسلمين" ومناهج "اللغة العربية" باعتباره واجباً قومياً وإنسانياً.